# نـسـمـة العـكـلـوك

# نـسـاء بروكـسيل

روايـة

## الإهداء

إلى الحب الذي وجدته ...

# الجزء الأول

# 1

## صدفة

**لور / بروكسيل 2016**

جلست على المقعد الأمامي لكي تتجنب الدوار الذي يصيبها عادة حين تركب المواصلات العامة، خاصة حينما تخفض رأسها نحو الأرض أو حين تنشغل بهاتفها المحمول بينما العربة تسير في طريقها نحو الوجهة التالية. أما الشاب الذي بصحبتها يقف منتظرا لكي ينهض أحدهم عن مقعده فيتمكن من الجلوس بالقرب منها.

صوتهما خافت ،ما إن بدأ الحديث يأخذ منحى جديا أكثر حتى بدأت نبرة صوتهما ترتفع رويدا رويدا. لفت انتباهي نبرة صوتها وهي تقول: الحياة قاسية ولئيمة.

النبرة العنيدة في صوتها، أخبرتني بأن الحياة لم تكن منصفة معها، كما أنها لم تنصفني مؤخرا أيضا ،كما فهمت فهي مطلقة مثلي تماما. لو كن ت من تتحد ث إليه لأخبرتها رأيي بصراحة، إننا بسبب هذه الضغوط الاجتماعية؛ نصبح منافقين أمام أنفسنا بجدارة. وليس هناك ما هو أصعب من هذا. نحن حصاد المجتمع الذيلم نختره، وإن كان على حساب سعادتنا أو قراراتنا الشخصية التي لا تؤثر على الجماعة، ولكن رفضها قد يشقينا.

لم أقصد التنصت عليهما، وحين يكون الحوار شيقا، فيكون الاستماع غير متقصد، بدت سارة انفعالية وهي تحاوره والرجل يطأطئ برأسه مُهمهما مرات، ومرات

أخرى يخفي عنها عدم موافقته على ما تقوله. كنت أود مشاركتهما في الحديث، لكنني شعرت بالخجل من المبادرة.

هما يتحدثان العربية، كنت قد تعلمتها قبل خمس عشرة سنة عندما سافرت إلى الأردن وسوريا وفلسطين، رغم صعوبة الأمر إلا أنني أتحدثها الآن بطلاقة، وما بدا صعبا جدا في السابق، أجني ثماره الآن بلذة. أغرمتُ أنا الفتاة البلجيكية باللغة العربية منذ صغري، مما أثار استغراب عائلتي التي تمتد بعض جذورها إلى الإيطالية من ناحية الأب، إذ هاجر جدي من إيطاليا إلى بلجيكا واستقر مع زوجته منجبا ستة أبناء، أجادوا التحدث بالإيطالية، ثم تزوج والدي بفتاة بلجيكية وبسبب عمله وغيابه عن المنزل لا نتحدثها، في لحظات وجوده فيتحدث إلينا بالفرنسية.

بعد انتهاء دراستي الثانوية قررتُ دراسة لغة جديدة، فاخترت لغة صعبة تختلف بثقافتها عن أصولي أنا الفتاة البلجيكية، كذلك حروفها التي تكتب من الجهة اليمنى، كان تحديا صعبا لي، بسبب عائلتي التي فضلت أن أدرس اللغة الإيطالية، اللغة الأم لجدي الذي استقر هنا في بداية الخمسينيات، لكنني لا أتحدثها، هذا ما يحدث غالبا للأجيال اللاحقة من المهاجرين، حيث يفقدون هويتهم الأصلية تدريجيا، ليرتبطوا بالبيئة التي نشؤوا فيها وبعض الإجازات الصيفية للدولة الأم. الآن أدرك جيدا عدم اختياري للغة الإيطالية كان انتقاما غير مقصود من أبي الذي أهمل دوره في توريث هذه اللغة إلينا.

يتوقف الباص، يخرج عدد من الناس ويدخل آخرون إليه، والفتاة لا تزال تدافع عن وجهة نظرها. الشاب بجانبها يبدو مغرما، لا يريدُ أن يعكر مزاجها بعدم قبوله

لما تطرحه، فاكتفى بالإيماءات ،رغم أن حركة جسده تفضحه، لكنها بدت منشغلة بما تقول، لا تنتبه إليه. هو يسرح قليلا عن حديثها ،يبدو كأنه يأكلها بعينيه.

فتاة جذابة بعينيها العسليتين، وبشرتها الحنطية، وشعرها البني الغامق، رغم عدم معرفتي بها إلا من الكلمات التي أسمعها الآن. هذا الشاب ما يلبث أن يلفظ إسمها. تبدو شخصية عنيدة، جلستها وطريقتها في التحدث تعبر عن فتاة مقاتلة ،لها أن تترك أثرا جميلا، أو تحديا. حدة ملامحها تخدع من يراها، صوتها رخيم يبعث قشعريرة في جسد الشاب الذي بدا متأثرا بوضوح كبير، ولم يبذل مجهودا يذكر في إخفاء تأثره.

من مكاني هنا يمكنني القول هذا الشاب المسكين لن يصمد أمامها طويلا، وكأنه يحتاج إلى قوة إضافية لكي يتمكن من مجاراتها، ويبدو واضحا أنه لا يناسبها. تدرك هذا جيدا، كما تدرك إعجابه بها ،لذلك تتغاضى عن النظر إليه مباشرة.

بدأ ت تبحث عن دفتر المواعيد في حقيبتها، سجلت شيئا ما، ثم همت بإغلاقه ،حين بادرها بالسؤال: كيف جرت مقابلة العمل الأخيرة

جلس ت مستقيمة، تستعد لتفاصيل مطولة ستسردها عليه، نظر إليها منتبها وهي تقول : ذهبتُ إلى المكتب المسؤول عن التوظيف للمسجد في بروكسيل، دون غطاء الرأس، استقبلني شيخ عربي بكل حفاوة !

ضحك مطولا مستمتعا: " كيف بدت تلك الحفاوة؟".

فاستطردت حديثها بانفعالية واضحة: الشيخ العربي لم ينظر في اتجاهي. تلهّى بشيء ما على يمينه. انتظرتُ طويلا أن يعير هذا اللقاء انتباهه، لكنه لم يفعل.

_ ربما كان مشغولا بشيء ضروري.

_ لم ينظر في اتجاهي، وقفت أمامه كالمسمار لا أتحرك ولا أتحدث. انتظرته لكي يبدأ الحوار فنتمكن من إجراء محادثة طبيعية، لكنه لم يفعل.

هو: وأنتِ؟

_ وجد أن لا مفر من الأمر؛ فبدأ بكلمة واحدة لا غير.

_ شو صار؟

_ قال " تفضلي! " تجاهلهُ أثار حفيظتي، فسألتهُ مباشرة : " هل معاملتك الخاصة سببها عدم ارتدائي للحجاب؟ هل حكم ت على من خلال فكرة مسبقة؟ ما أعرفه أن الدين هو معاملة وليس تجاهلا، وبأنني احتراما للمسجد سأرتدي الحجاب ".

غريب هذا العالم المتناقض، لا يتم قبول سارة في العمل بسبب عدم ارتدائها الحجاب، في حين يتم رفضي من العمل بسبب ارتدائه. رُفضت من مجتمعها وأنا رُفضت من مجتمعي رغم أننا نعيش داخل المدينة نفسها، كلاهما متشابهان، يفرضان علينا ما يحتاجانه، يصدران إلينا ما يريدان منا أن نصبح عليه، ولا يسمحان لنا أن نكون على ما نحن عليه.

خيمَّ صمت قاتل بينهما، ولولا الضجة في الباص لقتلنا صمتهما. نهضت سارة مستعدة لمغادرة الحافلة حين توقفت في محطتها المنشودة، ودعت صديقها فرد السلام باسما وهو يناديها باسمها " سارة العزيزة " هذه كانت محاولة أخيرة منه لتلطيف الأجواء. يبدو هذا الشاب لم يترك أي تأثير يذكر في داخلها.

كنتُ أود لو أناقشها قليلا عن هذا العالم الذي تتحدث عنه، لكنها خرج ت قبل أن تتاح لي الفرصة، عالمها يشبه بعضه عالمي، ربما خفت قليلا من أن تظنني فضولية تسترق السمع إلى أحاديث الغرباء، خاصة وأن حوارنا سيستغرق وقتا طويلا والباص ليس مكانا مناسبا أبدا خاصة مع وجود هذا الصديق ،على الأغلب ستوجهُ لي نفس السؤال الذي اعتاد من لا يعرفني أن يسألني إياه وهو : ما قصة حجابي وأنا الفتاة الأوروبية المسيحية ؟

يصحبني شعور بالندم لأنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لفعل ما أريد بنفس اللحظة. كلماتها لا تزال تطن في رأسي، فضولي يزداد نحوها، ما أعرفه بأنها فتاة فلسطينية واسمها سارة. مع تقدم هذه التكنولوجيا لم أتمكن من الحصول على أي معلومات إضافية قد تؤصلني إليها. لكنني ميزتُ لهجتها الفلسطينية بوضوح حين كانت تتحدث إلى زميلها.

يمكنني أن أسأل عنها من خلال الجالية الفلسطينية أو السفارة ،هذا ربما يثير الشكوالفضول ،ليس لدي جواب معين لماذا أريد مقابلتها؛ شعرت بالقرب والتفاهم مع مخلوقة لم أتحدث إليها كلمة واحدة، من سيصدقني؟ خاصة وأن هناك ريبة تلازم الفلسطيني من أن يكون هناك اهتمام اسرائيلي خفي به.

فتحتُ الكمبيوتر المحمول بعد دخولي المنزل وبدأت عملية البحث عن سارة. نسيت ترتيب الحاجات التي أحضرتها، أتمنى لو تطورت هذه التكنولوجيا لكي نستعين بها حين نجهل المعلومات الكافية عن الشخص ،وصف شخصية ما مثلا؛ لكي يجده الكمبيوتر لنا. مثلا قد أصفها بأنها فتاة اندفاعية وحالمة ببشرة حنطية لوّحتها أشعة

الشمس قليلا، عنيدة ولسانها سليط بصدقه، لا تعرف كيف تجامل، نحيفة جدا ،الشعر القصير، رغم أن الشعر الطويل عادة هو الق صة الرائجة والمستحبة في الشرق الأوسط، إلا أنها تبدو مرتاحة بقصة " البوي " مع روج أحمر قاتم تضعه على شفاهها الرفيعة فتفتح الشهية لقبلة، هذا اللون يبرز حدة ملامحها، فتبدو جذابة بملابسها البسيطة غير المتكلفة، كأنما تريد أن تقول شيئا ما.

مرت ساعة كاملة ولم أجد خيطا واحدا يدلني عليها.

في هذه الساعة من يوم الأربعاء نادية وتوماس يعودان باكرا من المدرسة ، أعُدّ وجبة الغداء ونتناولها معا. بما أنني عاطلة عن العمل؛ أصبحت متفرغة كليا لهما. ليس من السهل التعامل مع توماس، بسبب رفضه لحجابي، حيث يشعره بالخجل حين يراني أصدقاؤه. وكما يقول بأنه يحتاج إلى التبرير الدائم، بأن عائلته غيرمسلمة وأنني كاثوليكية، وبأننا نعد طبق الحلوف على وجبة العشاء.

خسرتُ زوجي مقابل فتاة روسية عشرينية شقراء، يظن توماس أن الحجاب هو سبب هذه الخسارة، ولكن الأمر بدأ منذ فترة طويلة جدا، والحجاب كان حجة والده للطلاق، فقد خانني قبلها بسنوات عدةّ.

سمعتُ صوت إغلاق الباب، وأنا أضع لمساتي الأخيرة على المائدة في المطبخ، لابد أن يكون توماس هو من وصل أولا، كعادته يصعد السلالم نحو غرفته مباشرة، فيما نادية تلقي التحية قبل صعودها إلى الغرفة لتغيير ملابسها. صعدتُ إلى غرفته وقبل أن أطرق الباب، سمعته يتحدث مع شخص ما في الداخل، لذلك عدت أدراجي إلى الأسفل.

جلستُ أمام شاشة الحاسوب مجددا، أبحث في جوجل عن كيفية إيجاد شخص ما من خلال شبكات التواصل الاجتماعية، جربت طرقا كثيرة بصبر كبير، سجلت في كثير من الصفحات النشطة من أجل القضية الفلسطينية، اشتركت في كثير من المواقع كذلك لكي يصلني إشعار إن وجد نشاط ما، من يعرف قد ألقاها مجددا من خلال هذه الأنشطة.

دخلت نادية إلى البيت، ألقت التحية كعادتها، ثم صعدت نحو غرفتها، كنت أنظر إليها وأنا أتساءل كم تشبه والدها، تحمل لون عينيه الرماديتين، وشعره العسلي ،ممتلئة قليلا مثله تماما، تفهمني وتساندني رغم صغر سنها، لم تتم الثالثة عشرة بعد. في لحظات كثيرة نستبدل أدوارنا تماما لأصبح ابنتها ولتغمرني بحنيتها، لا أعرف كيف حدث وأن أصبح لي بنت مثلها، أشعر وكأنها هدية الرب.

ما زلتُ أتذكر حين كانت في عمر التاسعة وقد رفض ت تناول وجبة العشاء معنالاحتوائها على اللحم ،ق رر ت في ليلتها أن تصبح نباتية. احترمتُ قرارها فورا، منذ تلك اللحظة وأنا أحضر لها شيئا مخصوصا. ساندتها مقابل والدها الذي اعتبر صغر سنها غير مناسب لاتخاذ هذا القرار. في المقابل تعاملني بالمثل. احترم ت خياراتي وإن بدت صعبة بالنسبة إليها.

غالبا ما تقول بأني وثقت بها وبخياراتها ولذلك تحترم اختياراتي وإن لم تتفق معها. لا يمكن أن نكون متشابهتين، وإن حاولنا تغيير الأشخاص من حولنا لن يجدي نفعا ولكن سيصيبنا وجع نتيجة لذلك. وقد نخسر أحباءنا.

ابنتي تفاجئني بأفكارها، وكأن ما مررنا به جعلها تكبر بسرعة. أخاف أن تلومني لاحقا على ذلك. أنا سعيدة بأني وثقت بها في حينها، فما لبث أن اتضح بأنه قرار جدي بالنسبة لها. ولم يكن القرار وليد اللحظة ومؤقتا ،هي نباتية ولا أزال أحضر لها وجبتها الخاصة التي أشاركها بها في بعض الأحيان. أتركها تكتشف بنفسها إن كان جيدا أو سيئا، هذا ما تمنيته من عائلتي، ولكنني كنت مضطرة لأن أحارب من أجل ما أريد، وأن أخوض حروبا لكي أقنعهم بمساندتي أو بتقبلي؛ الأمر الذي أنهكني، لطالما تمنيت منهم المساندة والتفهم. لذلك أحاول أن أكون لهما الأم التي تمنيتها لنفسي.

اليوم هو أحد أيام مارس المشمسة، عادة ما يكون باردا وتمتلئ السماء بالغيوم. الجو منعش وهذه فرصة نستغلها للتنزه، لتلوح الشمس بشرتنا الشاحبة قليلا ،وننفض عن جسدنا الكسل، يخرج توماس بعض الأحيان ليروض كلبه في هذاالجو المشمس، فيما يقع عبء هذه المهمة عليّ في الأيام الباردة والملبدة بالغيوم. مؤخرا بدأت أشعر بأن طريقتي لا تجدي نفعا، هو يعرف كيف يستغل هذا الشيء لصالحه، ليس من السهل أن أكون أما لابن في عمر المراهقة، توماس حاد بطباعه، منذ صغره وأنا أحتاج إلى طريقة مختلفة معه، لم تنجح معه أي من العقوبات التي فرضت عليه في الصغر. بدأنا وكأننا نفقد السيطرة عليه منذ طلاقنا، وباللاوعي بدأنا أنا ووالده نعذر أخطاءه ونتسامح أكثر مع هفواته، وهذا الشيء أضرّ به، وفقدنا السيطرة عليه لاحقا. التحدث مع والده لم يجدِ نفعا، وأجدني هنا أتحمل هذه المسؤولية الصعبة وحدي، فيما تساعدني نادية حين يصعب على إيجاد الطريقة المناسبة للتعامل معه. عمرهما المتقارب يجعلها أقرب إليه مني.

الجو جميل بشكل لا يصدق ويغريني لتناول وجبة الغداء في الخارج ،توجد حديقة عامة قريبة من المنزل، هذا الجو المشمس الرائع لا يتكرر كثيرا في مارس. نقيم في حي " أتار بيك" وهنا على بعد خمسمائة متر من المنزل يوجد بارك "ساكونت نير" يمتد من شارع " رو دو لاروا" يطل على اتجاهات عدة منها ساحة شومان الذي يقع على جانبه الأيسر مقر المفوضية الأوروبية.

في مدينة بروكسيل تتوفر الحدائق العامة الكبيرة بكثرة، حيث لا يكاد يخلو منها حي، دائما ما نجد البارك يمتد إلى عدة شوارع، يكتظ بالناس خلال الأيام الحارة ويكاد يكون مهجورا خلال الأيام الباردة إلا من بعض الرياضيين الذين يمارسون رياضة الجري صباحا حول حدود الحديقة العامة رغم برودة الجو.

لكن هذه الفكرة على الأغلب لن تلقى قبول توماس الذي يتحاشى الظهور معيخارجا. عليه أن يتعلم احترام قراراتي وتقبل ما أنا عليه، لم تنجح معه أي من محاولاتي اللطيفة. ربما سأحتاج إلى بعض الصرامة معه. سمعت صوت خطواته يهبط سلالم الدرج، بصحبة صديقته كيم، لابد أنه كان يتحدث إليها حين هممت بطرق باب غرفته قبل قليل.

_ الجو جميل، وقد حضرت الغداء لتناوله في الخارج، لنستفيد من هذا الجو المشمس، نحتاج إلى فيتامين دي .

أجابني بفظاظة كعادته : يمكنك تناول حبوب فيتامين دي !

_ كما قلتُ؛ سنخرج.

_ أنا أفضل تناول وجبة الطعام داخل المنزل.

شعرتُ بأنها اللحظة المناسبة لكي ألقنه درسا فقلت بصوت رفيع بدا حازما : إما أن تتناوله معنا خارجا، أو تنام على معدة فارغة. أما صديقتك فيمكنها الانضمام إذا رغبت.

منذ فترة لم أر نظرة الصدمة تطلّ من عينيه، حيث لم يتوقع هذه الجدية، ظن أنني سأتنازل أمام رغبته كما في المرات السابقة، هو لا يعرف مدى تعبي من هذه الحالة، لذلك إن كان سيعيش معي تحت سقف هذا المنزل، فعليه أن يحترم قوانينه.

صرخ منزعجا وعاد إلى غرفته وقد تبعته صديقته، انضمت نادية تتساءل عنسبب هذه الفوضى.

_ عليه أن يتعلم احترام قوانين هذا البيت.

لم تقل شيئا واكتفت بأن أومأت برأسها، خلال ربع الساعة كنا في الطريق العام متجهين نحو البارك والكلب بصحبتنا.

تناولنا وجبتنا بكل هدوء، استلقت نادية على ظهرها والسماعات في أذنيها، وأنا كنت أراقب الناس ولكن في حقيقة الأمر لم أكن أرى ملامح أو تفاصيل، كأنني كنت أخترق أجسادهم، وأحاول أن أعرف كيف يمكن أن نكون مختلفين بهذه الطريقة. منذ فترة طويلة جدا؛ كنت خالية الهمّ، يغريني كل ما هو غريب، وقعت في الحب بجنون، قبل ذلك بكثير كنت آخذ ما تقدمه هذه الحياة بكل سرور.

حين عدتُ إلى المنزل لأشارك والدي بقراري في الالتحاق بجامعة " لوفان الكاثوليكية " للدراسة باللغة الفلمانية والعربية، لم يكن اقناعهما سهلا في البداية ومن ثم اعتادا الأمر. والدتي من فضلت دراستي باللغة الفرنسية. جامعة لوفان أول

جامعة بلجيكية وتم إعادة تأسيسها بعد الحقبة النابليونية، حيث تم اغلاقها خلال فترة حكمه، ومن ثم تم تقسيم الجامعة إلى شطرين يحملان نفس الاسم ،إحداهما تنطق باللغة الهولندية، والشق الآخر باللغة الفرنسية، وبالنسبة لوالدتي بدا غريبا عليها أن أختار اللغة الهولندية وقد كان يمكنني اختيار الشق الفرنسي حيث لغتها، وجامعتها كذلك.

عادة لا يبادر الوالوني الناطق باللغة الفرنسية لتعلم اللغة الفلمانية، بينما الفلماني الناطق بالهولندية غالبا ما تجده يتحدث أكثر من لغة. في وقتها والدتي فضلت أن أحافظ على طقوس عائلتها المتحدثة بالفرنسية ،لكنني حينها خيبت آمالها. هذا القرار فتح عيني على العالم والشرق الأوسط. كما هو السبب الرئيسي لثقتي

بالقرارات التي تتخذها نادية. هذا ما جعل الأمور بيننا سهلة، والثقة متبادلة. ممتنة بأن قراري كان صائبا في حينها.

في بداية الألفية الثانية وصلتُ أنا ومجموعة من الطلاب إلى بلدة بيت ساحور حيث تقع قرب بيت لحم، استضافت المجموعة كلهًّا عوائل فلسطينية، وأنا أقمتُ بين عائلة فلسطينية مكونة من ثمانية أفراد، كنت يافعة جدا، مهتمة بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي ، وشعري كان ورديا مع بعض الخصلات الزرقاء، ونحيفة بشكل مخيف. أبو علي هو الجد الذي يقيم معهم في المنزل نفسه، هو من استقبلني في ذلك الصباح. تحدثنا سويا واستمعت إليه بانتباه كبير. أحببت الجلوس معه والاستماع إلى قصصه المسلية، برغم عمره الثمانيني، بدا قويا وذاكرته صلبة ،مع أدق التفاصيل الممتعة.

في اليوم الأول ما بعد الظهر؛ خلد أبو علي إلى النوم. تعرفت إلى بعض أفراد العائلة، ولكن الصغار لا يزالون في دوامهم المدرسي، وابنهم الكبير في عمله ،والأم زينة تعمل كمدرسة في إحدى مدارس وكالة الغوث، قد تحدثنا سابقا عبر الهاتف، ولكننا لم نلتق بعد. خرجت مع المجموعة لزيارة بعض الأماكن القريبة ،قبل عودتها من العمل.

عدتُ الى البيت بعد يوم طويل ومرهق، زرنا خلاله كنيسة المهد. استقبلتني زينة بالأحضان، ثم قدمت لي وجبة طعام ساخنة، رغم أنني أخبرتها أنها غير مضطرة للتحضير خصِّيصا لي، ووعدتها أن أكون حاضرة أثناء تناول الطعام لمساعدتها. في المساء جلست مع الجد أبو علي، مستمتعة بقصصه، كنت لا أفهم كثيرا من الكلمات التي يستخدمها، لتقوم زينة بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، كنت أحمل دفتر الملاحظات وقد دونت الكلمات والمفردات التي تعلمتها منه. دخلنا إلى المطبخ لتحضير الشاي على الطريقة الفلسطينية. أخبرتني زينة أن الميرمية تستخدم أثناء فصل الشتاء ،والنعناع يستخدم أثناء فصل الصيف.

نادى عليها أحد أبنائها لتساعده ببعض الواجبات المدرسية، كنت أحضر الأكواب الخاصة بالشاي حين دخل شاب أسمر البشرة، متوسط الطول، شعره ناعم وطويل يكاد يغطي رقبته، نظر إلى وتكلم باللغة الانجليزية.

_ انت لور، أليس كذلك ؟

قبل أن أجيبه دخل ت زينة إلى المطبخ وهي تسأله: تعرفت على لور؟

نظر إلي مدققا وأجاب والدته باللغة العربية : بتطلع حلوة لو غيرت لون شعرها الملون !

توترت الأم قليلا. وجهت حديثها نحوي: عمر يحب المزاح !

عمر: طلعت بتفهم عربي ؟! وبدا خجلا قليلا.

ابتسمتُ لأتفادى هذا الإحراج، ثم قلت بالعربية : أهلا عمر، تشرفت بمعرفتك .

مد يده للسلام، كما العادة هناك، ونظر إليّ مطولا : أهلا بكِ !

في حينها ربما بدا مضحكا بالنسبة إليه تحدثُّي بالعربية الفصحى، رغم أنه بدا مستغربا أكثر، استأذن منا ليدخل إلى غرفته، بعد أن أخبر والدته بأنه تناول وجبة العشاء في الخارج مع أصدقائه. تذهب إلى عملها يوميا، وتهتم بأولادها الخمسة، كذلك الجد وهو والد زوجها الشهيد، ووالدتها المصابة بالزهايمر التي تحتاج إلى رعاية دائمة منها. فتحضر وجبة الغداء ثلاث مرات وربما أكثر بسبب المواعيد المختلفة لأفراد العائلة في العودة إلى المنزل.

سألتها: " ألا يتعبك هذا المجهود ؟ "

ابتسمت ثم أجابتني بأنها اعتادت ذلك منذ تسعة أعوام، حين استشهد زوجها واضطرت أن تتحمل مسؤولية هذه العائلة بمفردها.

هي لا تعرف كيف تستريح وتستمتع وسط هذا الضغط المستمر والمتطلبات التي لا تنتهي، لذلك ربما هي لا تشتاق إلى الراحة.

كانت بيننا طاقة ايجابية، شعرت بها كلتانا، تبدو أصغر من سنواتها الأربعين وإن رأيت تناسق جسدها، لا تصدق أنها أنجبت خمس مرات. عمر هو ابنها البكر يليه فادي الذي لا يزال على مقاعد الدراسة الجامعية، أما محمد ففي الثانوية العامة ،أحمد ومي توأمان في المرحلة الإعدادية. فادي هو من استقبلني صباحا مع الجد ،بدا لطيفا، يصغرني بعام، لكنه بدا وكأنه أكبر من أعوامه العشرين. جمعتني علاقة جيدة مع الجميع، لكن علاقتي مع عمر بدت متوترة منذ البداية، لم يخرج من غرفته ذلك المساء، ولا أعرف لماذا أزعجني هذا، كنت أسترق النظر نحو باب غرفته، حتى فقدت الأمل في خروجه من الغرفة، فاستأذنت الجميع وخلدت للنوم بعد يومي المتعب.

_ ماما ؟؟

جلبني صوت نادية من ذكرياتي البعيدة، خمس عشرة سنة مرت بسرعة، كنت فتاة في مقتبل العشرين، والآن والدة ليافعين. بدا وكأنها تناديني منذ فترة، وأنا منشغلة بذكرياتي الجميلة، كانت نظراتها تثقبني، تفهم ما أمُرّ به، وكأنها تتمشى بعقلي متلصِّصة على ذكرياتي.

_ أجل يا حلوتي؟

_ وصلتك رسالة عبر الهاتف.

حين قرأتُ الرسالة، قمتُ من مكاني بسرعة؛ مما أثار استغرابها، فطلبت منها الاهتمام بالأشياء والعودة إلى المنزل بمفردها، لأن عليَّ الذهاب إلى مكان ما الآن.

وصلتُ المنزل قبلها، غيرّتُ ملابسي بسرعة، والتقطت حقيبتي، بعد أن تأكدت من احتوائها على الكارت الخاص بالمواصلات العامة والمحفظة ومفاتيح المنزل.
خرجت مسرعة حيث يوجد وقفة أمام السفارة الإسرائيلية ،ربما سأجد سارة هناك.

## 2

## احتمال لقاء

**ســارة / بروكسيل 2016**

_ أعيش في بلجيكا.

_ بلجيكا ؟

بلجيكا مملكة صغيرة، لم تحظ بأي انتباه داخل كتب التاريخ المدرسية في الشرق الأوسط، حيث يجهل بعضهم بعض التفاصيل البسيطة، مثلا أين تقع. هل يجوز تسميتها دولة أو مملكة؟

سيتبادر إلى الذهن العربي حين يسمع اسم "بلجيكا" أنها تتحدث اللغة البلجيكية ،وهذا ما سمعته سارة مرارا حين كانت تخبرهم أنها تعيش هناك.

ابتسمت سارة مجيبة : تقع في قارة أوروبا ،قريبة من فرنسا.

وبمجرد لفظ فرنسا، يبتسم الشخص المقابل. أدركت سارة أن ذكر فرنسا هو كالعصا السحرية حيث سيوفر عليها الشرح الكثير. صححت لهم مرارا بأن بلجيكا ليست دولة ،بل بقعة صغيرة مقارنة بالدول الأوروبية ذات نظام ملكي اتحادي. _ ما هي اللغة البلجيكية؟

تضحك دائما ولا تمل من الإجابة بأن هذه البقعة الصغيرة تعترف بثلاث لغات رسمية وهي اللغة الهولندية والفرنسية والألمانية. الأمر الذي يثير الاستغراب بسبب صغرها. تعرف اهتمام العالم العربي بمجال كرة القدم، لذلك تسارع في إخبارهم أن بلجيكا وصلت نصف النهائيات لكأس العالم الذي أقيم في المكسيك في عام ٦٨٩١ ولم تصل النهائيات بسبب خسارتها ضد الأرجنتين. اللاعب الأسطوري الأرجنتيني مارادونا حقق هدفين مقابل صفر لبلجيكا. أغلب أصدقائها وأهلها يعيشون في فلسطين فهي لا تنسى أن تسرد عليهم العلاقة القديمة بين فلسطين وبلجيكا؛عندما كانوا يطلقون على الفلسطيني البلجيكي على الحدود الأردنية الفلسطينية، ذلك بسبب بيع الفلسطيني للبسطار البلجيكي في ذلك الوقت.

وجدت نفسها ترد بعض الاتهامات أو الاعتقادات الخاطئة حين يسرع شخص بالحكم عليها كدولة آمنة لم تعرف الحرب أو الموت، فترد سارة بعد أن قرأت القليل عن تاريخ معاناة بلجيكا والدمار الذي ألحق بها خلال الحرب العالمية الأولى والثانية وقد خسرت الكثير من الأرواح، حتى أعطت معاهدة فرساي، التي أنهت الحرب مع ألمانيا، مقاطعتي أوبن ومالمدي الألمانيتين إلى بلجيكا.

التفجيرات الأخيرة في مطار العاصمة، وفي مترو ما لبيك ،وضعتها في صدارة الأخبار في العالم منذ ارتباط تفجيرات باريس عام 2015 من خلال أشخاص يقطنون حي مولنبيك في بروكسيل.

تسليط الضوء على هذه الخلية الإرهابية، عرَّ ف العالم العربي ببلجيكا. تعارف قديبدو سيئا حيث ارتبط بالتفجيرات والعنف. سيكون تعارفا جميلا إن كان التعارف بدأ من خلال متحف الكوميكس مثلا. يبدو هذا العالم مجنونا حيث انقطعت حلقة من حلقات عقده، فتناثرت أجزاؤه في كل مكان، هذا ما يحدث الآن، لا تعرف من أين تأتي الضربة وما هو المكان التالي. العالم مهدد في أمنه أغلبهم لا يفهمون بعد أن فقدوا الثقة في الإعلام الذي تحكمه البروباغندا.

في صباح ذلك اليوم المشؤوم في بروكسيل حيث تم التفجير في محطة المترو.
خرجت سارة مبكرة من منزلها لمقابلة عمل، تنتظر في الصالة مع المتقدمين الآخرين للوظيفة، سمع ت امرأة في عقدها الخامس تتحدث عبر الهاتف، سرعان ما انخرطت المرأة في البكاء، فأثار تصرفها استغراب الجميع. تقدمت السكرتيرة منها لتتأكد أنها على ما يرام.

_ سيدتي، هل تحتاجين إلى المساعدة، هل كل شيء على ما يرام؟

_ هناك تفجيرات في محطة المترو !

انتشر الفزع بين الموجودين ،بدأت الهمهمات تنتشر في المكان، الجميع يوجه الأسئلة إليها في نفس اللحظة، ثم تداركوا الأمر فانشغل كل منهم بالبحث عن التفاصيل من خلال الهاتف.

_ هل عائلتك بخير ؟

أجابتها المرأة وهي تمسح دموعها : أجل، لكن ...

ساعدتها السكرتيرة التي تبدو في عقدها الثالث على الجلوس وناولتها كأسا منالماء. همست بلطف : اهدئي.

_ ابنتي هاتفتني الآن، أخبرتني بأنها سمعت الانفجار داخل المحطة وهي تخرج من المترو، مجرد ثوان ...

_ لكنها نجت، لا تقلقي .

تدخلت امرأة من الجالسين قائلة : قبل دقائق من هذا الانفجار سبقه انفجار آخر في مطار زافنتيم !

التزمت سارة الصمت وهي تتابع الأحاديث من حولها، في البداية لم تفهم ماهية هذه التفجيرات، التوتر داخل الغرفة انتقل إليها بسرعة، وبدأت تبحث عن تفاصيل هذه الواقعة.

من يعيش الحرب، لا ينسى أبدا، وما هي سوى "نكشه" حتى يعود الخوف مجددا.

في هذه اللحظة تعيش حالة من الوجع والذكريات المتشحة بالسواد والدماء، تسمع صوت الطائرات الحربية المحلقة فوق سماء فلسطين؛ وصوت المدافع المتتالية ،تشتم رائحة الموت، ويغسلها وجع لا يموت بسهولة. في هذه اللحظة أدركت أن ما عاشته هناك لم يمت بل كان مختبئا في مكان ما داخلها. يخرج الآن بكل انسيابية رغم مرور كل هذه الأعوام على غربتها.

بعد نصف الساعة تم اتخاذ القرار بتأجيل المقابلة، فاستعد الجميع للمغادرة. أغلبهم مشغولين مع هواتفهم المحمولة، إما اطمئنانا على عوائلهم أو متابعة للأخبار والمستجدات.

حين خرجت من باب المكتب، بدت الشوارع مكتظة بالسيارات والمشاة، معتوقف المواصلات العامة. تم إغلاق محطات المترو والترام والباصات لدواع أمنية. اضطر الناس لاستئجار سيارة التاكسي للعودة إلى منازلهم، وهناك من اضطر للسير مسافات طويلة. الجو بدا منعشا، فقررت سارة العودة إلى المنزل سيرا على الأقدام.

انتشرت الشرطة في شوارع بروكسيل، على غير العادة. حين وصل ت بروكسل قبل ثمانية أعوام لكي تستقر مع زوجها كانت قد انتهت لتوها من دراستها في جامعة النجاح. وقتها لم تر شرطيا واحدا في الشارع. مع الأحداث المستجدة بدأت الأمور تأخذ منحى آخر. طبعا تفضل وجودهم، لكنها لم تعتد بعد عليهم يحملون بنادقهم في الشوارع العامة، تسير مبتعدة عنهم؛ خوفا من هذه البنادق التي تذكرها بجنود إسرائيلي اقتحموا منزل العائلة في الصغر، ليسرقوا مجوهرات والدتها.

أحيانا لا يمكننا التحكم بمشاعرنا الداخلية رغم إدراكنا للحقيقة، تدرك جيدا أن لوجودهم سببا أمنيا، لكن هيئتهم تذكرها بجندي إسرائيلي متغطرس قتل ابن الجيران، ابن الجيران الوسيم، بكت كثير من الفتيات على فقدانه، وقد كن يحلمن بعلاقة رومانسية قد تجمعهن به، لكن بموته بدا أنهن لن يحصلن على هذه الفرصة أبدا.

أخرج ت المفاتيح من حقيبتها لكي تفتح الباب، بمجرد دخولها اندفع تامر إلى ذراعيها مُقبلا عنقها، شدته إليها وحملته ثم أغلقت الباب بقدمها اليسرى، سارت نحو الكنبة متنهدة لتجلس وهي تعترف بفخر: لقد كبرت، ليس سهلا حملك الآن.
غطت وجهه بقبلاتها .
صاح تامر فرحا ومتظاهرا بالقرف من قبلاتها ،بعد لحظات دخلت إلى الغرفةفتاة بيضاء بشعر كستنائي ناعم طويل يصل إلى وسط ظهرها، جلست بجانبهمامتسائلة : كيف جرت مقابلة العمل ؟

تنهدت سارة : تأجلت بسبب الأحداث الجارية في بروكسل الآن.

قالت مها : لعله خير، تامر أصبح أفضل الآن، وقد انخفضت درجة حرارته.

ضمته إلى صدرها وهي تخبره : اشتقتلك ! أخ بدي آكلك !

هرب من بين ذراعيها وهو يضحك : لقد اعترفتِ بأني كبرت.

ضحكت سارة : ستظل صغيرا في عيني حتى وإن بلغت العشرين.

رفع يده أمام وجهه وبدأ يعد على أصابعه الفرق بين عمره والعشرين، واحد ،اثنان،...

شعر وكأن الفرق كبير لذلك تنهد محتجا : أنا كبير الآن .

تدخلت مها مبتسمة وهي تؤكد كلماته : أجل، كبير وسأنتظرك لكي نتزوج .

ثم ضحكتا وهما تريان نظرته المستغربة متنهدا : يمكننا أن نتزوج الآن خالتو.

_ نسيت إخبارك ! مرت مريم لرؤيتك ولم تجدك في البيت.

تقابلت سارة مع مريم حين كان تامر ما يزال صغيرا جدا ويحتاج إلى كثير من العناية، ينطق ببعض الكلمات القليلة ولم يتمكن حينها من لفظ اسم مريم جيدا ،تقابلتا بعد خروجها من علاقة زواج تعيسة، زوج غيور جدا، بينما هي فتاة طموحة؛ لم تتمكن من أن تعيش تحت ظل رجل لا يرى سوى أنوثتها، أرادت أنتشاركه الحياة، لا أن يقودها وحده.

تزوجت صغيرة السن معتقدة أنها واقعة في الحب. تعرفت على زوجها من خلال الشبكة العنكبوتية. هو يعيش في بلجيكا حيث بدا إنسانا متفتحا في البداية، وقد وعدها بالمساعدة لتحقيق طموحها، منذ اللحظة التي أغلق عليهما بابا في بروكسل، بدا أكثر تسلطا وعنادا مما تخيلت.

التعامل كان معه صعبا. وخيار الطلاق ليس خيارا سهلا للفتاة العربية، تركت عائلتها وأصدقاءها في فلسطين من أجله، ثم جاءت إلى بروكسيل بعد عقد قرانهما. سريعا ما أدركت مشاعرها نحوه ليست حبا ،وزواجها غلطة كبيرة ،وأنه مزدوج الشخصية. الأيام القليلة التي قضياها سويا حين جاء زائرا إلى فلسطين بغرض الزواج منها، لم تكن زيارته لمدة كافية ليتعارفا جيدا، ولكنها أقدمت على الزواج

دون خوف لأنها رسمت له صورة في مخيلتها وعاملته على أساسها ،ولاحقا اكتشفت تسرعها، وتخلفه عن وعوده.

أقسمت أنها لن تتزوج دون حب، وأنها لن ترضخ للعادات المتبعة في المجتمعات العربية، كانت صغيرة وسريعة التأثر، لم يمض سوى شهر واحد على زواجها لتدرك الخطأ الذي ارتكبته، وقد قررت الطلاق، فإذا بها حامل، فقررت أن تعطي علاقتهما فرصة أخرى بسبب عائلتها التي مارست الضغط بكل أنواعه. رفضت طلاقها بالمطلق. جاء تامر وقد ظنت أن وجوده قد يغير حياتهما إيجابيا، لكن أي من هذا لم يتغير.

عائلتها لم تدعم قرارها، واجهت اتهامهم لها بالجنون والتهور وعدم تحملالمسؤولية. لم يتفهم أي من والديها أنها تعيش حالة من الضياع معه، وأنها تتنفسولكنها فعليا غير حية. هي منفصلة منذ ما يقارب الخمس سنوات، حيث لم يكن سهلا أن تطلب الانفصال وأن تقبل عائلتها بقرارها.

مرت في صراع وخصام طويل مع عائلتها، حتى أدركوا أن هذا الخصام لن يؤثر عليها، وأنها مصممة بشكل كاف ولم تتراجع عنه. حاربت الجميع من أجل حريتها، وبالفعل حصل ما أرادت، وتمكنت من الحصول على حريتها مجددا بعد صراع طويل من الرفض. منذ تلك اللحظة تعيش مع ابنها. زوجها السابق تزوج مجددا بعد الانفصال بما يقارب الشهرين، هذا لم يفاجئها. مازالت عزباء منذ تلك اللحظة، لم يمسسها رجل بعده، رغم أنها تخلصت من ذلك القيد "غشاء البكارة "، الذي يعتبر عائقا كبيرا أمام الفتاة العربية، وعليها المحافظة على فرجها.

واجهت سارة أهلها عدة مرات واعترضت بعض المسلمات.

_ يا أمي ! تعُامل الفتاة منذ ولادتها كزجاج رقيق قد يخدش بسهولة ،وإن كسر فقد خسر قيمته إلى الأبد. عليها الحفاظ على نفسها من أجل زوجها المستقبلي، وكأنها تحمل كنزا كبيرا. هذه خرافات تنتشر بين عامة الناس نتيجة للعادات والموروثات الباطلة.

_ من تكونين أنت حتى تتجرأي على ترك ثقافتنا ورائك بهذا الشكل ؟

في صغرها أرادت أن تقود الدراجة الهوائية كما زميلتها في الفصل التي تقود دراجة أخيها. رآها عمها وهي تتدرب مع أخيها الصغير. لاحقا لم يقبل أخوها أن تقود دراجته مجددا، يئست من الإلحاح والمحاولات المتكررة في إقناعه، ثمأدركت أن عمها قد شرح لأخيها الصغير أضرار هذه الهواية على مستقبلهاكزوجة. لذلك الفتاة تحمل هما حتى ليلة زفافها، فتتخلص منه وتتخلص من العبء الذي وضعه المجتمع على كاهلها؛ بمعاملتها كمذنبة حتى تثبت براءتها في ليلة الزفاف.

لم تمارس الجنس منذ خمس سنوات ،هي لا تدعي أنها لا تشتاق للمسة رجل على جسدها لكن بعد تجربتها الصعبة؛ وجدت نفسها أقل تأثرا وكأنها تعاقب نفسها على خيارها الأول، رغم أنها تقر بأنها غير نادمة وقد خرجت من هذه العلاقة بنضج كبير ووجود تامر وحده في حياتها يجعلها تشعر بالفخر.

غالبا ما تسمع سارة بأن نسبة الطلاق المرتفعة في المجتمع الغربي نتيجة للخيانة ،وهكذا هذا يبرئ المجتمع العربي منها، رغم انتشارها هناك، ولكن خيار الطلاق ليس خيارا سهلا.

تتذكر كيف كان عليها أن تقاوم زوجها، ولكنه لم يتورع عن اغتصابها. حاولت مرارا أن تقبل لمسة يده، أو مضاجعته لكنها لم تقدر. في البداية كان يتفهم بكاءها ،لأنها حزينة منه ومن تصرفاته، لكن نفورها أصبح حالة دائمة، فأصبح أكثر عنفا ولم يترك لها المجال لكي ترفض.

تتذكر حوارها مع والدها وهي تشرح له سبب رغبتها في الطلاق " مش قادرة أطيقه ".

صوته يتردد في أذنها حتى اللحظة: الملائكة بتلعنك طول الليل لأنك بترفضيه ! سُلطة هذه الجملة تركتها تعاني فظلت تحت وطأة الذنب، حاولت كثيرا لكنها لمتقدر. ثم وصلت إلى قناعة بأنها لا تستطيع الاستمرار وستطلب الطلاق مهمايحصل.

_ بدي أطلق

_ ما في عنا بنات تتطلق

_ جربت كثير، ما بدي أظلمه ولا أظلم نفسي

_ انت اخترتيه ما حد غصبك

_ غلطت، ما في حدا بيغلط؟

_ بس في غلطات ما بنفع تتصلح

_ اغتصبني !

_ هادا زوجك مش غريب لتقولي اغتصبك !

تعبت وهي تحاول مع عائلتها، ثم قررت لاحقا أن تخوض الأمر بمفردها. زوجها ووالدها لم يتفهماها ولم يراعيا ما تمر به من نفسية سيئة، ولكي تصبح أفضل لابد من أن تتخلص من السبب. والدها لم يفهم ما شعرت به حين ضاجعها بغير إرادتها، وكيف رجته أن يبتعد عنها. شعرت بالعجز وقد اعتبر جسدها ملكا له ،كأمر مفروغ منه. مما جعلها تنظر إلى جسدها بالكره. مر وقت طويل قبل أن تتصالح مع نفسها بعد هذا العنف النفسي الذي مارسه عليها بصفته الزوج. رغم وعيها ونضجها لاستمرت في هذا الوضع وقتا أطول وربما كانت النتيجة ضرر أكبر، لكنها تمكنت من الخلاص.

لم يتوان عن استخدام كافة الأساليب ضدها، لكي يحاول إخضاعها؛ مستغلا ابنهما تامر في البداية ثم جرب طرقا مختلفة بائسة للضغط عليها. أحيانا تشعر بالضعف وعدم القدرة على المقاومة، خاصة وأنها لم تجد من يساندها في قرارها، إما عائلتها أو زوجها. كلاهما مارس الضغط عليها وأسلوب "الزن" هناك مثل شعبي عربي يقول " الزن أ مّ رُ من السحر ". لذلك رفضت أن تسمعهم ،غضت سمعها وبصرها، وحاربت وحدها.

بذلت مجهودا كبيرا في أن يكون قرارها قاطعا أمام أهلها. لم تتوقف تلك الصور عن التلاحق داخل ذاكرتها بشكل طبيعي. أحكم إغلاق الباب عليها، رفض مشاركتها في معارض فنية، أو أن تقوم بلقاء صحفي متعللا بعدم ثقته بالعالم ،ولكنه يثق بها. هو لم يفهمها ولم يثق بقدرتها وبأحلامها وحاول أن يهدم طموحها ،وحين

أدركت ذلك عرفت أنه لا يمكنها الاستمرار في هذا الزواج. لم يكن ما مرت به سهلا، ولكنه جعلها أقوى وأكثر صلابة وإقبالا على الحياة.

هذه الخلافات وضعتها تحت وطأة الذنب ،لم تعد ترغب في الاستمرار في هذا الزواج أكثر من ذلك، في نفس الوقت لا تحتمل عقدة الذنب التي وضعها والداها على أكتافها مرددين " راح نغضب عليك! ". هذه الجملة التي غالبا ما يستخدمها الأهل مع أبنائهم حين لا يعجبهم تصرف معين، كما أكدت صديقتها البلجيكية ذلك من خلال عرضها لمثالا مستهجنة تدخل الأهل في قرارات الحب.

_ يا صديقتي هناك من تعترض أن يخرج ابنها مع فتاة لا تناسبه من وجهةنظرهم، لأنها ليست على مستوى الجمال المطلوب، أو أقل نسبا منه، يصبح الابنتحت تأنيب الضمير، في أن يُغضب والدته التي لا تتواني عن ترديد هذه الجملة لكي يطيعها برغباتها، أو الذنب تجاه الفتاة التي يحبها وقد وعدها بمستقبل جميل ،فيتخبط بينهما.

_ كيف تعرفين هذا ؟

_ أعرف أن الأم الشرقية تتصرف بأنانية دون أن تدرك ذلك، مستغلة رضا الوالدين الذي حثت عليه الديانة الإسلامية، لا تدرك أنها تؤثر على حياة ابنها بشكل سلبي قد يلازمه طوال حياته، هذا يضع الابن أو الابنة تحت منصة الخوف من الذنب لأنهم يعصون الوالدين رغم تعرضهم للضرب اليومي والقسوة في المعاملة. هاتان حالتان من عدة حالات أخرى قد نجدها بكثرة داخل مكتب مستشار نفسي في الشرق. فقد عملت هناك لبعض الوقت وسمعت الكثير من القصص الحزينة، أتزكر زوجة كانت تتوافد لزيارة المعالج لكي يساعدها على تحمل زوجها، وتقبل العنف؛ ملتمسة

له الأعذار نتيجة المفاهيم المغلوطة التي يتناولها الناس من جهة " الزوج يحق له ضرب الزوجة إن عصته"، أو "الملائكة تلعن الزوجة طوال الليل حتى الصباح إن منعت جسدها عنه".

اندهشت سارة من صديقتها وأفكارها التي عبرت عنها بهذه الحرية، هي لا تتجرأ بالتحدث عن هذه الأمور بهذه الصراحة المفرطة وأحيانا تخجل بالاعتراف بها. سارة مصورة فوتوغرافية وقد افتتحت معرضها الخاص في مدن مختلفة في

بلجيكا وميلانو وبعض الدول الأوروبية، إلا أن هذا لا يدر دخلا ماديا كافيا مع وجود ابنها الذي يحتاج إلى استقرار مادي، دائما ما تقول أنها سعيدة وقد خرجت بهذا الكائن الجميل من علاقة قبيحة. هناك شيء ما يدهشك في هذه الحياة ،ودهشتها الحقيقية حتى هذه اللحظة كيف كرهت كل ما يربطها بهذا الزوج في حين تحب هذا الصغير لدرجة لا يتصورها عقل !

عادة ما تكرر جملتها الشهيرة : " أن تكون فلسطينيا؛ يعني أن عليك عبئا كبيرا وهو أن تقاتل يوميا". سارة تضحك ،موضحة بأنها تعرف كم يعاني الرجل الفلسطيني ومعاناته هذه تترك أثرا كبيرا على المرأة كذلك، حيث يتم اضطهاد الرجل فبدوره هو يضطهد المرأة. ومن ثم تقول طبعا لا يمكن إغفال دور المرأة الأم أو الجدة أو الأخت حيث هي السبب الأولي في الذكورية العالية الموجودة في المجتمع الفلسطيني. أحيانا تفطن أنها " تتفلسف " كثيرا وهذا قد يزعج من حولها فتتدارك الأمر، ولكن كثيرا ما تفلت منها الأمور وتنسى نفسها وقتا طويلا، وما أن تنخرط في فلسفتها الحياتية حتى تجدها تندمج بسرعة في نقاشاتها وتنتظر من

الجميع أن يكون على نفس الدرجة من الجدية ،وتنسى أن الجميع يحتاج إلى وقت من الراحة والاستمتاع.

في طريقها نحو جلسة التصوير، تقابلت صدفة مع صديقها، فاستقلا الباص سويا ،بمجرد أن فرغ الكرسي المجاور حتى جلس بجانبها، مبديا اهتماما كبيرا في معرفة أخبارها.

أجابته سارة حين سأل عن تامر: هو وجه من أوجه الصدق في هذه الحياة، لكن من سيضمن أنه لن يتأثر بتلوث المجتمعات المفروضة علينا؟

_ " هذا العالم يشبه ضمائرنا" بدا كأنه غير مهتم بهذا العالم الذي تتحدث عنه ،ولا يثير اهتمامه غيرها في هذه اللحظة.

ودّ لو يحتويها بين ذراعيه ليخرسها وتصمت، فقد اكتفى من جدالها، تجذبه جديتها وكذلك تستفزه وهذا ما يتركه حائرا.

بدا وكأنها تنتظر منه ردا ما، فشعر بالارتباك؛ لأنه كان مهتما بسرقة قبلة، ولم يتابع ما قالته، فأجابها : " ماذا يشبه هذا الضمير؟ "

ضحكت بقوة وهي تخبره : الضمير الذي يمثلنا، يمثل الخير والشر، وللأسف كفة الشر ترجح، لذلك تجد هذا العالم السافل !

- تامر سيكون قويا كفاية !

بدا وكأن إجابته لم تعجبها، حيث بدت إجابة تقليدية. فقالت : لو قرر العودة إلى فلسطين، هل سيقاوم الضغط المجتمعي الذي سيفرض عليه لكي يتبع قوانين الجماعة ؟ أو سيضطر للجوء للكذب ليكسب هذا المجتمع ويفعل ما يريد في الخفاء؟

بدا الحديث جديا أكثر مما يحب، محاولته لتغيير مجرى الحديث لشيء أكثر بساطة باءت بالفشل.

وكأنها تحاول إثبات وجهة نظرها، فضربت نفسها كمثال : أنا ابنة هذه المجتمعات، يزرعون في داخلنا الكذب منذ الصغر، سواء بقصد أو دون قصد ،وخوفا من الرفض نصبح متلونين أمام الدولة والمجتمع والأقارب والأبوين، ولا تنس سلطة الأخ كذلك !

قاطعها : أخوك ألم يساعدك أثناء طلاقك ؟

ابتسمت: أخي الصغيرالحليم، لكنني لم أذكر أخي الكبير الذي يظن أن سلطته لا يعلو عليها أحد، أخي هذا يشبه الحكومة.

ضحك وهو يردد : الحكومة؟

- لا ينسى أن يأخذ حقوقه كاملة، لكنه بالمقابل لا يقدم شيئا، مثلا أن يكون حنونا معنا !

لفهّما صمت عميق، لم يكسره أيٌّ منهما. هي تعرف أنه لا يهتم قيد أنملة بهذا العالم الذي تصفه بالسافل، قد يكون هو جزءا مساهما في هذه السفالة. نظراتها إليه تتحداه،

أ ن يحافظ على لطافته طويلا، تدرك جيدا أنه يبذل مجهودا قويا لكي يجذبها إليه، وهي تحاول أن تقبل هذا منه، وهذا لا ينجح بينهما مطلقا، تسير نحوه بخطوات امرأة عملية، محاربة وقوية، مبتسمة، لكن الابتسامة متكلفة وغامضة ،وكأنها تفكر بشيء ما بعيد جدا عنها، شيء ما تنتظره.

عدلّ ياقة جاكيته الأسود، والتفت إليها بعينيه الخضراوين ،ناظرا إليها مطوَّلا، وحين أدرك أنها لن تبادله النظرات، همس قريبا من أذنها : قمر.

نظرت إليه وهي ترد مجاملته بابتسامة سريعة: شكرا

قال الشاب متأكدا : هل حصلت على العمل ؟

تنهدت قائلة : كنت قد أدركت بأن لا فرصة لي في الحصول على العمل بعد انخراطنا في نقاش ديني طويل.

ثم استطرد ت : هل تعرف رد فعل جارتي الفلسطينية المسيحية حين أخبرتها بما حدث مع الشيخ؟ _ ماذا فعلت ؟

_ ما قالته تماما : " هذا رجل دين ! " ما لا أفهمه وإن كان رجل دين، ألا يمكننا انتقاده، أو نقاشه ؟

بدا مترددا في الإجابة فاستطرد ت : يجب أن لا يحول بيننا وبين الله أي أئمة أو قساوسة أو أحبار.

بدا حائرا، ولا يجد الكلمات التي تسعفه أمامها : بالتأكيد، فعلاقتنا مع الله خاصة.

علينا ألا نفرض مبادئنا أو قيمنا على الآخرين، ربما بهذه الطريقة تنتهي الفوارق الإنسانية، فالله يقبع في داخل كل واحد منا ،ونحن نختار الطريقة التي تناسبنا.

كما المرات السابقة حاول أن يعقب هذا الشاب بلطف : مثالية جدا حيث لا يمكن تطبيقها في الحقيقة، في النهاية الإمام له مكانة معينة، وكان يمكنك أن ...

قاطعته : هل هو مُنزل من السماء؟ هو مجرد إنسان مجتهد قد يخطئ وقد يصيب ،علينا أن نتخلص من تقديس الأشخاص، والتخلص من العادات التي تقتلنا. كيف يجوز له أن يعاملني باستخفاف لأنني لا أرتدي الحجاب؟ في حين عمله هو تصدير الإسلام للغرب غير المحجب.

طأطأ الشاب رأسه متمتما: مشكلتكِ أنك تأخذين الأمور بجدية كبيرة . الحياة ممتعة فاستمتعي بها.

أجابته : استمتاعي بالحياة لا ينقص من مسؤوليتي تجاه هذا العالم، ولو تحمل كل واحد منا مسؤوليته، لن يكون هذا العالم بهذا القدر من السفالة.

صدم من ردها القاسي، ربما يحاول التخفيف من وطأة الأمر عليها، ولكنه لم ينجح سوى إيلام نفسه، فالتزما الصمت. خرجت سارة من الحافلة؛ تاركة من خلفها فراغا.

مرت الأيام على وتيرة واحدة.

تردد مع الجمع بعض الهتافات أمام السفارة الإسرائيلية في بروكسيل، تحمل العلم الفلسطيني، وتضع على رقبتها الكوفية الفلسطينية، اليوم هو أحد أيام مارس

المشمسة مما جعلها في مزاج عال، جاءها اتصال هاتفي من مها يخبرها بأن حرارة تامر ارتفعت مجددا، استأذنت من صديقتها المغربية شروق وغادرت المكان بسرعة.

**مريم**

منعزلة منذ عودتها من السفر، لم تجب على اتصالات سارة، فأثار غيابها قلق الجميع بسبب حالتها هذه، عادة ما تكون الأكثر مرحا بينهن، خاصة في التجمعات المسائية، إلا أنها تخلفت عن آخر لقاء دون سبب واضح، بل تجاهلت اتصالاتهن، ولم يتمكن أحد من الوصول إليها.

يبدو أنها قررت الخروج من قوقعتها التي امتدت شهرا كاملا فجاءت لزيارة سارة في منزلها هذا الصباح.

منذ وصولها إلى بلجيكا، لم تقع في الحب، يبدو كأن حبيبها العراقي مازال يمتلك جزءا كبيرا من قلبها، رغم أنها وقعت في حبه وهي صغيرة جدا، لم تتمكن من تخطي هذه العلاقة التي أثرت على حياتها سلبيا.

كانت فتاة صغيرة تحب الحياة، ترى الأمور بشكل مختلف عن صديقاتها، وقعت في حب أستاذها الجامعي. بدأ الانجذاب بينهما دون أي مقدمات رغم الفارق الكبير في السن الذي لم يشكل لها أي مشكلة. رغم شكله العادي، إلا أنها رأته وسيما دائما. أحبت خشونة وجهه والخطوط المحفورة على جبينه، وشعره القصير الخفيف المختلط ببعض الخصلات البيضاء، التقيا كثيرا خلال بعض الأنشطة الجامعية بعد الدروس الاعتيادية. تخلى أمامها عن ألقابه. بدأت تتعلق به تدريجيا، وهو أحب تعلقها به. استمتعت بالوقت الذي منحها إياه حسب فراغ أجندته، تمنت قضاء المزيد من الوقت بصحبته، لكنها لم تتجرأ أن تطلب ذلك. يلتقيان بشكل يومي، يخترعان حججا، لم يخف أمر زواجه عنها، وهي لم تتوقع أنها ستقع في حبائله.

في البداية أحبت قضاء الوقت معه وتعلقت به، منكرة مشاعرها نحوه، ثم لاحقا أجبرها على الاعتراف؛ فاعترفت له ولنفسها في نفس اللحظة. لم تكن تنتظر منه مقابلا، واستمرا على حالهما فترة من الزمن، يلتقيان سرا، يجتمعان كلما حانت لهما الفرصة، معه تعرفت على الرجل، لمسة اليد الأولى، والقبلة الأولى والعناق العنيف الذي يريد أكثر فأكثر.

ألح عليها في مرة أن تزوره في بيته، متمني ا قضاء أكبر وقت بصحبته، رفضت خجلا في بداية الأمر، ولم تخبره أنها تتلهف لأن يناما متعانقين، ولم تتجرأ أن تعترف بأن جسدها يحتاج إلى لمسة جسده، وأنها ترغب به أيضا. اكتفت بالحب.
لم يحاول يوما أن يضاجعها مما أثار استغرابها وقد كانت مستعدة لأن تفعل هذا ،لكنه بدا خائفا من أن يتورط خاصة بأنه لم يسبق لها أي تجربة جسدية، فهذا يجعله

يتحمل بعض المسؤولية، خوفه من العادات العربية القديمة، حيث تلجأ العائلات إلى حل الزواج كوسيلة لغسل الفضيحة التي قد تصاب بها العائلة لأن ابنتهم فقدت عذريتها دون نكاح شرعي؛ إن كانت العائلة متفهمة، لكن بعض العائلات قد يستخدمن العنف أو القتل الذي ينتشر في مناطق الأرياف.

لم يمارسا الجنس يوما، لكنه كان متطلبا لإرضاء غرائزه. يحب تأملها عبر المرآة ملتصقة به. متكاملان على هذه الصورة، مرتدية ملابسها وهو شبه عار، بدا مشهدا غريبا على النظر.

استمتع بصغر سنها، مما جعله في حالة من الرضى، لقدرته على إيقاع فتاة ذكيةوصغيرة وجذابة في حبه. أحب خجلها الذي يشكله كما يريد ومتى يريد على قياس جسده وحاجاته.

أثارت الجدل من حولها بسبب تناقضها، تبدأ في حالة انعزال تام عن الجميع أثناء شهر رمضان، ترتدي الحجاب وتقرأ القرآن بشكل يومي، وتداوم على الصلاة دون تأخير. في بعض الأحيان تغلق كافة حساباتها على السوشيال ميديا، وتعطي وقتها خالصا مخلصا للعبادة لا غير.

تبكي كثيرا على سجادة الصلاة دون سبب واضح، ولا تعطي وعودا تعرف أنها لاتستطيع الالتزام بها. تجلس على سريرها ساعات لا تفعل خلالها شيئا سوى التحدث إلى الله، تحدثه بصراحة دون خجل أو خوف، تناقشه وتسأله بجرأة لو سمعها شخص ما قد يكفرها، أو يلعنها.

طرحت بعض الأسئلة التي تدور في رأسها أمام صديقاتها. أسئلتها هذه أثارت حفيظة مها تجاهها، فبدأ بينهما نقاش حاد، كل منهما تدافع عن أفكارها. مها لديها حالة رضا وقناعة بما تربت عليه، وقد تدافع عنه بشراسة مميتة. أما مريم تؤمن بالحاجة لطرح الأسئلة وإن كانت قاسية؛ كي تفهم. هذه كلمتها التي لا تفارق لسانها حين لا يدعها شخص ما من مشاركة أفكارها فنسمعها تقول : " بابا ايش بيك ".

بدأت تراودها هذه الأسئلة بعد ما حدث من سوء فهم مع صديقتها نيما القادمة من التبت، كانتا تجلسان على مقعد خشبي عريض في وسط الحديقة الجامعية والشمس تتصدر السماء، مما لاءم الحشرات لكي تخرج من مخبئها. وهذا أزعجمريم، فقتلتها بعفوية لأنها ترهبها وقد اقتربت من يدها الممدودة على الطاولة، فرأت نظرة رعب في عيني صديقتها، لم تعلن عن استيائها. لم تفهم مريم ما اقترفته حتى رأتها تتناول حشرة أخرى عن يدها وتضعها على الغصن المتدلي من شجرة تنتصب فوقهما؛ ابتسمت. لحظتها فهمت أنها تعدت بعض المحرمات بالنسبة لصديقتها، لم تفهم السبب ولكنها احترمت معتقدها واعتذرت منها رغم غرابته بالنسبة لها.

نيما تستيقظ قبل الجميع مع شروق الشمس، لكي تتعبد في العراء، تجد السلام في صلاتها والطمأنينة في معتقدها، مما جعل مريم تدرك أنها لطالما شعرت بالفوقية ظنا منها أنها الأقرب إلى الله. ثم اكتشفت أن الجميع يظن نفسه على صواب ودينه هو الأفضل. هذا الظن يجعلنا نظلم أنفسنا ومن حولنا.

انتهى شهر رمضان وبدأت مريم تخرج من قوقعتها تدريجيا، ومن سلامها الداخلي؛ لتنغمس في العالم الخارجي. لم يمر سوى أسبوعين حتى بدأت تنخرط في نشاطاتها

مجددا. ارتدت الشورت الجينز القصير جدا والضيق الذي لا يكاد يخفي شيئا، مع بلوزة بحمالتين رفيعتين، جسدها منحوت يتصدره ثدي مرفوع وليس صغير الحجم، مع مؤخرة بارزة بعض الشيء، متخذا شكل الزجاجة حيث ينحصر بخصر رفيع جدا. بشرتها ذهبية لوحتها أشعة الشمس، عيناها عسليتان وأنفها مدبب وشعرها طويل يصل إلى آخر الظهر، عادية الجمال ولكنها جذابة جدا ومغرية بجسدها الطري الممتلئ. بدأت الشمس بالغياب والحركة بدأت تزداد في شوارع بروكسيل. تقف أمام مبني لا بورس وسط المدينة تنتظر أصدقاءها ،منشغلة بتأمل الناس، تسمع أغاني كاظم الساهر من خلال السماعة في أذنها، بداكأنها لم تر نظرات ذلك الشاب وهو يتفحص جسدها تفصيلة تفصيلة، ثم يعود مجددا إلى نفس الطريق قاصدا لفت انتباهها إليه. جلست على المدرجات أمام المبنى الممتلئ تقريبا بالناس بعد أن تعبت من الانتظار، فانحسر الشورت أكثر ،بدت غير مهتمة إن كانت تلفت الانتباه إليها.

لم يمر وقت طويل حتى رأت نظرات ذلك الشاب، مدركة جيدا مدى جاذبية جسدها بهذا الشورت القصير.

وصلت مع الأصدقاء إلى سان جيري، طلبت كأسا من الماء، بينما طلب الجميع جعته المفضلة، حيث تشتهر بلجيكا بصناعة البيرة وخاصة " تريبل كارمليت " البيرة البلجيكية تستقطب عددا كبيرا من السياح حول العالم، كما يعرف البار" دوليريوم" باحتوائه على أكثر من " 1000 " نوع مختلف من الجعة. تشاركهم في بعض المناسبات شرب الكحول ولكنها لم تجرب السُكر بعد. تحب أن تكون مستيقظة دائما.

نزلت السلالم نحو الطابق الأرضي فعادة ما يكون المرحاض في الدور السفلي من المكان، لدى خروجها تفاجأت بوجود رجل يقف منتظرا، نفس الرجل الذي لم يخفض نظراته عنها أثناء الجلسة جالسا مع صديقه في الطاولة المقابلة لهم. شعره طويل يغطي كتفيه، ذقنه كثيف غير مهذب. غير جميل بالمرة ولكن هناك هالة من الجاذبية تحيط به.

_ قد يبدو مزعجا لكِ أن يعترض غريب طريقك.
_ إذا؛ لكي لا تكون غريبا. من أنت ؟

ابتسم وهو يمد يده للسلام : أنا برونو

مدت يدها وهي تبتسم بخفة، وقد شعرت بضغط يده على يدها، فسحبتها لتسير متخطية إياه : سعدت بالتعرف إليك برونو.

حين وصلت أعلى السلالم وجدته يقف أمامها مباشرة وقد كانت تحركاته سريعة ،وقد اكتفى بالنظر إليها فاستقبلت نظراته بهدوء شديد. سمعته يقول : لم أتعرف بك.

_ أووه اسمي مريم. همت بمغادرته، إلا أنه استوقفها بكلماته.

_ قد يبدو مجنونا هذا الموقف، ولن أقول أنها المرة الأولى التي أعترض طريق فتاة بهذه الطريقة، فمن سيصدق ؟ رغم أنها الحقيقة. لكن جلوسك هناك أصاب الفنان الذي بداخلي بحالة من الجنون !

_ الفنان ؟

_ هل تقبلين أن أرسمكِ ؟

مرت لحظة صمت بينهما، هو يقف مراقبا ردة فعلها، ونظراته تمشي على كل جسدها.

استطرد : من الطبيعي تدركين أنك تشبهين شيئا غير عادي، غير جميل ولكنه جذاب جدا.

سألته بهدوء : عارية ؟

لم يجبها فورا ،لاحظت أنه توتر أمام هدوئها.

_ لا

_ خسرت الفرصة، نعم؛ كانت كافية لأوافق.

ضرب رأسه بيده وهو يقول : فرصة ثانية ؟

_ لا

مرت من أمامه مبتسمة، ثم اختفت تاركة إياه يغرق في خيبة أمل.

استأذنت أصدقاءها لتغادر المكان ،صوت خافت في داخلها يقول أنها سترى برونو لاحقا، لكنها ليست واثقة متى أو كيف.

بدأت تسير جنوبا نحو المدينة، هي تفضل وحدتها من حين إلى حين والسير في شوارع المدينة دون وجهة محددة وفي أذنيها السماعات تستمع إلى أغاني عربية تعود بها إلى بغداد؛ فتستنشق ذكريات قديمة داخل صدرها فتنفثها؛ رامية ابتسامتها العشوائية على المارة، حيث تنتبه إلى بعض الابتسامات من المارين ،فتردها دون خجل أو خوف سواء كان المار طف لا أو امرأة أو شاب ا .

وصل ت إلى ساحة جراند بلاس، جلست القرفصاء على الأرض وسط الساحة وقد وضعت حقيبتها بجانبها، تتأمل المباني المحيطة بها، بزينتها الذهبية التي لطالما أثارت اهتمامها. رفعت سماعة الأذن حيث أثار انتباهها محادثة بين رجلين يتحدثان باللغة العربية، يبدو أحدهما قد وصل حديثا إلى بلجيكا والآخر ربما يعيش هنا. بدأ يشرح له بعض تاريخ المدينة. انتحر مهندس مبنى الجراند بلاس من أعلاه بعد انتهائه من البناء؛ مكتشفا الجهة اليسرى تختلف بعرضها عن الجهةاليمنى. بالطبع هو لم يخبره أنها مجرد قصة عادة ما يتم إخبارها للسائح، مع بعض التفاصيل الناقصة أو الزائدة. هو نفسه قد لا يعرف أصل القصة ويخبره ما أخُبر ممن سبقه في الوصول. لم يثرها شيء آخر في محادثتهما، همت بوضع سماعة الأذن مجددا ولكنها امتنعت في اللحظة الأخيرة وهي تسمع الرجل الأول يسأل صديقه.

_ كم فتاة نمت معها ؟ سمعت أن الشقراوات جميلات في السرير.

ضحك الآخر وهو يخبره : ممن سمعت ؟

_ أريد تذوقهن أيضا.

وضع ت سماعة الهاتف في أذنها وهي تفكر؛ الرجل العربي يخيل له أن المرأة الأوروبية بسبب تحررها مقارنة بالفتاة العربية ،سهل الحصول عليها دون جهد يذكر. ومتى أراد يمكنه جرها إلى السرير. هذه الفكرة المسبقة داخل العقل العربي عن المجتمع الأوروبي، كما هناك أفكار مسبقة كثيرة عن المجتمع العربي.

نهضت من مكانها لتغادر الساحة، وبينما هي تمر من أمامهما سمعته يرمي تعليقا حادا عن جسدها ظنا أنها لا تفهم العربية. لم تتردد لحظة بالنظر إليهما بقوة؛

أخبرتهما أنهما وأمثالهما سبب في هروبها من هناك والسبب في هروب آخرين. غادرتهما وهي ترى نظرة الرعب في أعينهما والخوف. التقت لاحقا بسعاد وذهبتا سويا لزيارة سارة في منزلها.

تركت مها جهاز الكمبيوتر وذهبت لفتح باب المنزل ،وجدت سعاد ومريم تقفانأمام الباب ،حاولت سعاد تحسين الأجواء وهي تقترب من مها لتقُبلها، سارا نحو الداخل، بعد أن سلمت مريم عليها باليد. لم يحدث يوما وأن تشاجرتا، لكنهما قد اتفقتا سرا ألا تعترض أي واحدة منهما طريق الأخرى، وبالفعل قد حافظتا على المسافة بينهما. ما رأته مها وأزعجها أن مريم ترتدي شورتها الجينز القصير ونصف صدرها مكشوف.

تبادلتا النظرات وكل منهما تقول شيئا ما. سيكون هذا الحوار بينهما لو نطقتا فعلا.

مها : هذا التباهي مستفز.

مريم : هذا ما تظنينه أنت، ليس ضروريا أن يكون صحيحا.

مها : تطرف إذا ؟

مريم : سطحية.

مها : وأنتِ فاهمة الحرية غلط .

مريم : وأنت بتفصليها حسب وجهة نظرك .

مها : تستمتعين بنظرات الرجال إليك !

مريم : لست مسؤولة عن نظراتهم.

مها : لا تخجلين!

مريم : يكفي أن تخجلي أنت من جسدك.

بدتا وكأنهما ستستمران طويلا في التحدي والتحديق، إلى أن دخلت سارة الصالةوهي تتنهد : أهلا بالجميلات، وأخيرا نام !

سعاد : لم أره منذ فترة، هل انخفضت درجة حرارته؟

سارة : ليس بعد، عدت إلى المنزل بسبب ارتفاعها مجددا، أخبريني هل تصالحتما؟

قالت مريم : وماذا تتوقعين ؟! كما هو المعتاد.

نظرت سارة تجاه ساعد سعاد، العلامات الحمراء على جسدها بدأت تخف لتصبح زرقاء.

قالت مريم لسعاد : هل خف غضبك كما خفت هذه العلامات على جسدك؟

خجلت ونظرت إلى الأرض وهي تعترف بضعف : أحبه!

مها تجلس معهن ولكنها لا تشاركهن الحديث بما أن الموضوع حساس جدا ،ففضلت الصمت.

بدت مريم غاضبة حيث لم تتمكن من إخفاء غضبها لتسأل : كيف تشعرين وهو يلمسك ؟ هل تستمتعين بمغازلته؟ أو تشعرين بالنشوة معه؟ أم تتذكرين يده وهي تهبط على جسدك لتصفعه!

قاطعتها سارة محاولة منها لتهدئة الجو الذي بدأ يتوتر : مريم خفي شوي .

قالت سعاد : الجميع يعرف بعلاقتي.

فأجابتها سارة : هذا ليس سببا يدعك تتغاضين عن سلبيات هذه العلاقة بسببخوفك من المجتمع وماذا سيقول عنك.

نهضت مريم عن مقعدها متجهة نحو الحمام وهي تقول : الفضيلة ليست حكرا على المرأة. فما يعيبها يعيب الرجل. ليس هناك ما يعطيه الحق لكي يفتخر بنزواته بينما المرأة تخفي رأسها في التراب، وقد كنت جريئة كفاية لتختاري هذه الحياة، فتحملي مسؤولية قرارك.

في هذه اللحظة التفتت سعاد تجاه مها الصامتة، فسألتها مباشرة : إن تبادلنا الأدوار، كيف ستتصرفين؟

ترددت مها في إعطاء رأيها ثم قالت : حين تتورط المرأة عاطفيا يصبح قرار الفراق صعبا، خاصة إن تزوجته، حيث الضغوط المجتمعية والأسرية التي تمارس عليها ستكون قوية، أنت في موقف أقل صعوبة، حيث لا زواج يربطك به ولا تعتمدين عليه ماديا. أنا أثق بقوتك لكي تخرجي من هذه العلاقة ولا تدعيها تدمرك.

سعاد : هو يحبني بجنون.

قالت سارة بلطف : كنت قد حذرتك منذ البداية، أتذكرين؟ الآن أنت تتورطين أكثر وتقبلين كذلك.

نهضت سارة عن مقعدها وجلست ملتصقة بجانب سعاد وهي تسألها بلطف زائد : هل يمكن بناء علاقة حب والثقة مفقودة ؟ هذا ما سيشغل بالي لو كنت في مكانك.

**سعاد**

لم يكن قرارا سهلا عليها كما لم يكن سهلا العودة عنه، بعد أن حاربت الجميع من أجله، وتقبلت ملامة أهلها، فلن تحتمل الشماتة. مازال حوارها معها عالقا في رأسها حتى هذه اللحظة.

سألتها : " لماذا تفعلين بنا هذا، تعيشين معه دون زواج ولا يخجلك الأمر".

هذه العادات والتقاليد التي كبرت عليها، أعين المجتمع ترى هذا الأمر خارجا عن المألوف، والآخر يعتبره حراما.

أجابت أختها : كنت صغيرة جدا حين سمعت جارتنا تقول " سأموت وأنا أتساءل كيف ستكون حياتي لو تزوجت". جارتنا الأربعينية التي لم تمارس الجنس في حياتها، فأصبح ت عذراء الحارة لأنه لم يسبق لها الزواج. لا تعرف ما هي لمسة الرجل على جسدها، لم تكن جميلة ولا قبيحة أيضا. لذلك فقدت حقها في أن تكون مسؤولة عن بيت خاص بها، كما تعرفين يا أختي العزيزة الزواج هو من يتيح للفتاة التونسية هذه المسؤولية، الآن أصبحت جارتنا في عقدها الخمسين؛ ماذا تغير؟ لا شيء. ما زلتُ أفكر كم خسرت هذه المرأة، هي تحت رحمة أخيها وزوجته لأنها تعيش معهما. فقدت الكثير من حقوقها. لذلك منذ تلك اللحظة قررت أنني لن أخسر لحظة واحدة من حياتي وأنا أنتظر.

صرخت أختها في وجهها : أنت مجنونة !

_ ما يهم هو الالتزام بالعلاقة، ونحن قد التزمنا تجاه بعضنا البعض.

_ أين عقد القران من هذا كله ؟

_ الجميع يعرف بأننا معا، وهنا يسقط بند الإشهار.

حاولت أختها الحفاظ على هدوئها، يبدو أنها لم تتمكن من ذلك طويلا، ما هي سوى لحظات حتى شعرت سعاد بصفعة قوية تسقط على وجهها.

منذ ذلك اليوم توترت علاقتها مع العائلة، قرارها هذا لم يمنع التواصل بينهما في المناسبات العامة.

سعاد تعرف ت إلى مريم من خلال نشاط جامعي قبل عامين، فبدأت علاقتهما تتوطد بسرعة لتتعرف من خلالها على سارة الفلسطينية. كانتا سعيدتين بهذه الصداقة التي بدأت.

وصلت إلى بلجيكا لاستكمال دراستها الجامعية، بعد تخرجها تعرفت إلى شاب وسيم أسمر من مدينتها تونس، تقابلا من خلال نشاط مغربي في مدينة الياج ،وبعد عدة أشهر من علاقتهما؛ اتخذا قرار العيش معا.

سعاد جذابة ببشرتها السمراء وشعرها الأسود المجعد طبيعيا الذي يحيط بوجهها الدائري ،وغمازتاها اللتان تضيفان رونقا خاصا إلى ابتسامتها.

التفاحة كانت سببا في بداية علاقة جديدة، وقف قريبا منها أثناء تحدثها إلى زميل ،وبيدها تفاحة حمراء. نظر إليها مبتسما فأعجبتها ابتسامته، بادلته الابتسام ثم ناولته التفاحة. ومن هنا بدأت علاقتهما.

تبادلا أرقام الهواتف في تلك الليلة، راسلها صباحا، وهي استجابت له دون أن تمُثل دور" الثقلانة " بل استجابت لقلبها.

في اليوم التالي اتفقا على الخروج سويا لشرب فنجان من القهوة، واليوم الذي يليه تناولا العشاء معا، وفي لقائهما الثالث تبادلا القبُل أمام المقهى الذي خرجا منه لتوهما. منذ التقت عيناهما أول مرة؛ حدثت تلك الشرارة، وتعارف جسداهما على طريقتهما.

_ " منذ رأيتك وأنا أفكر بهذه القبلة ".

ابتسمت له وهي تخفض نظراتها مهمهمة بكلمات لم يسمعها ولم يسأل ماذا قالت بل استطرد : لم أكن واثقا من ردة فعلكِ .

فاقتربت منه ولفت ذراعيها حوله مسندة رأسها على كتفه، ظلا هكذا وسط الشارع، والناس تمر من جانبهما غير عابئين بهما، هي شعرت بالراحة على صدره، أما هو فكان يفكر بثغرها، فرفع رأسها عن كتفه وبدأ يقبلها مجددا.

استمرت علاقتهما على هذا المنوال لعدة أشهر، حتى اتخذا قرار العيش معا.

من اللامكان قال لها بغتة : ما رأيك أن تنتقلي إلى شقتي ؟

حين سمع ت ما طلبه، تصورت أنها أخطأت فهمه، بدا الأمر غريبا وصعبا في البداية، فرفضت الانتقال مبررة ذلك بأنه قرار كبير، ولن يستوعبه أي من أهليهما.

_" لا داعي لتخبريهما، أهلك يعيشون في تونس، وأنت تعيشين هنا ".

رغم تبريراته ومحاولاته في إقناعها، لم تجد القرار سهلا، ورفضته.

بدأت علاقتهما تتوتر، أصبح غائبا، متعللا بالعمل، أو بأمور أخرى، شعرت بالغيرة ظنا أنه ربما يقضى ليلته مع فتاة أخرى، هو قادر على الغياب وهي غير قادرة على مغالبة الشوق له، ضعفت وقبلت أن تنتقل إلى شقته، على الأقل ستقضي وقتا أطول معه. وخلال شهر واحد حدث ما أراد.

بدأت العلاقة بكثير من ممارسات الحب، هو رجل متفتح العقل، يقومان بكثير من الأنشطة والزيارات العائلية وللأصدقاء سويا، بدأ يتعلق بها أكثر، ويشعر بالغيرة الشديدة إن حاول رجل التحدث إليها، متهما إياها بأنها السبب وراء اهتمامهم بها ويلمح بأنها من تركت المجال مفتوحا.

هو الرجل الأول في حياتها، ورغم أنها لم تسأله يوما إن ضاجع فتيات قبلها، ولم يهمها ذلك، إلا أنه في الفترة الأخيرة بدا مهتما كم شخصا ق بلَّت في حياتها، أو إن مارست أي نوع من أنواع الجنس من قبله، رغم أنه عرف أنه الرجل الأول في حياتها حين قضيا ليلتهما الأولى سويا.

مع الأيام بدأ حبها له يقل، وحبه لها يكبر، وغيرتها اختفت وغيرته بدأت تشعل الوسط مختلطة بالشك.

عادت من عملها مساء يوم الخميس، وجدته في المنزل ينتظرها، وقد حضر وجبة العشاء، تناولا الوجبة سويا، غسلت الأطباق المتسخة، فيما هو يتابع نشرة الأخبار. جلست بجانبه حين أنهت ما عليها فعله، فوضع يده على كتفها، شدها إليه، قبلَّ رأسها، بدأت تغفو على كتفه، رن هاتفها الخلوي، لم تسمعه فالتقطه، لم يكن رقما مسجلا، وضع الهاتف جانبا دون أن يجيب.

في اليوم التالي تفاجأت بسارة تهاتفها في الصباح الباكر، تسألها مباشرة : كيف علاقتكما الآن ؟

استغربت ماذا حدث لتسأل هذا السؤال.

_ هل نلتقى على الغذاء؟

قضت سعاد ساعات الصباح قلقة بعد اتصال سارة، تنتظر الساعة الثانية عشرة لتغادر مكتبها.

اتفقتا على اللقاء في مكان قريب من مقر عملها.

خرجت سعاد من المكتب، بعد أن ارتدت الشال حول رقبتها ووضعت المعطف على جسدها ثم التقطت المظلة بما أنها تمطر منذ الصباح دون توقف. حسب النشرة الجوية الطقس سيستمر أسبوعا على هذا المنوال.

الشوارع بدت باهتة والجميع مسرع الخطى، هناك من يجري محاولا تجنب المطر خوفا من أن يبلله. فتيات صغيرات يسرن دون أن يزعجهن المطر أو تبلل شعرهن وثيابهن، نتيجة لذلك قد يقضين أسبوعا في السرير بسبب هذا التهور.
تسيرامرأة عجوز ببطء شديد متزينة. تبدو وكأنها خرجت من الكوافير لتوها بمكياجها وقصة شعرها. ترتدي كيسا بلاستيكا مخصصا للرأس، وترفع المظلة كذلك بيدها.

سارت سعاد لمدة عشر دقائق غير منتبهة، تركز على الطريق إلى المطعم السوري حتى وصلت. وجدت سارة تجلس في الزاوية تنتظر قدومها. بمجرد دخولها نهضت

سارة مرحبة. تبادلتان القبل على الوجنتين فيما قبلة واحدة هي العادة في بلجيكا، مما يسبب الالتباس للأجانب. فهناك من اعتاد القبلة الواحدة ،وهناك آخرون ما يزالون على عادتهم.

لم تصبر سعاد حتى بدأت حديثها : هناك أمر قد حدث، أليس كذلك؟

_ دعينا نتناول وجبة الغداء أولا.

بسبب نظام العمل في أوروبا الذي يستمر للساعة الخامسة، عادة ما تكون الوجبة الحارة هي وجبة العشاء أما في الوطن العربي فوجبة الغداء هي الرئيسية الدسمة والساخنة، لذلك نجد سعاد تمارس بعض العادات الشرقية حين تتاح لها الفرصة ،بدلا من الجلوس على مكتبها وتناول وجبتها الباردة التي قد حضرتها مسبقا في المنزل، أو تناول شيء سريع في مكان قريب من العمل.

استطردت سارة : طلبت الطعام لنا، لنستفيد من الوقت ولا تتأخري عن وقت العودة إلى عملك.

_ جيد.

تقدم النادل ليضع الطلبات على الطاولة. بمجرد مغادرته قالت سعاد: يبدو ما ستقولينه مهما.

_ ربما.

_ فقط تحدثي، لا تشعري بالحرج.

_ اتصلت بك البارحة من هاتف مها.

_ نمت مبكرا ،في الصباح رأيت المكالمة الفائتة ولكنني نسيت أن أتصل. في كل مرة أريد تسجيل رقمها، لكنني أنسى!

_ في وقت لاحق من مساء البارحة، تلقت مها اتصالا من رقم غير معروف ،ولأنها قلقت من الاتصال، أجابت و" السبيكر" مفتوح.

_ما زلت لا أفهم ما علاقة هذا بي، هل الاتصال بخصوص والدها ؟

قالت سارة ببطء : لا

استطردت وهي تقول بسرعة قبل أن تخذلها شجاعتها : كان الاتصال من صديقك.

نظرت سعاد عن شيء ما في ملامح وجه سارة حيث لا تفهم ماذا تقصد " صديقي، كيف؟ ".

_ اتصل بعد اتصالي بك، وأنا سمعته وهو يتحدث يريد أن يعرف لمن هذا الرقم.

سعاد تحاول أن تجد مخرجا له : هل أنت متأكدة أنه هو ؟

في داخلها لم تستغرب، لأن بوادر هذا الأمر ظهر في تصرفاته، لكنها لم تتخيل أن يفعل هذا بها أمام صديقاتها. شعرت بالخجل ولم تعرف ماذا تقول. بدت متعبة وقليلة الحيلة في هذه اللحظة.

قالت سارة بثقة : هذه ليست مشكلتك، بل مشكلته هو، لذلك لا تشعري بالخجل.

_ ربما لم أعطه اهتمامي كاملا و ..

قاطعتها وهي تؤكد لها : لا تفعلي هذا، ما حدث ليس بسبب شيء فعلته، بل بسببه هو، لا حاجة لشعورك بالذنب، فإن بدأت تلومين نفسك لن تجدي حلا لهذه المشكلة، وستعلقين بها طويلا.

سألت سعاد بخجل : هل عرفت مها أنه صديقي؟

رفعت سارة حاجبيها : آسفة !

من هنا بدأت الخلافات تظهر إلى العلن بينهما، ولم يمض وقت طويل بين هذه الحادثة، وبين ضربه لها !

## مهـا

وصلت بلجيكا منذ عام واحد، لم يكن وصولها سهلا، دفعت الكثير من المال للعديد من المهربين. منهم من حاول مساعدتها ومنهم من سرقها. عيناها لا تضحكان، دمعتها قريبة بمجرد أن يذكر أمامها الوضع الحالي في سوريا. مكثت في تركيا عامين تحاول جمع المال المطلوب منها، اضطرت أن تجمع المال أكثر من مرة لأنها وقعت ضحية لعمليتي نصب.

فتاة وحيدة لأب فلسطيني كبير في السن حاول الإنجاب مرارا ولكن باءت كل محاولاته بالفشل تقبل الأمر الواقع وغمرها بحبه كله كاملا. فقدت أي أثر يدلها عليه، وما يزيد الأمر صعوبة إصابته بالزهايمر. لم يكن سهلا أن تبدأ حياتها وحيدة، رغم أنها عاشت مع والدها المسن منذ وفاة والدتها السورية، ووقعت مسؤولية البيت على كاهلها بما في ذلك رعاية والدها.

تقاتل هذه الحياة لكي تعيش، منذ وصولها إلى تركيا حتى انتقالها إلى بلجيكا لم تكف دقيقة واحدة عن البحث، نشرت صوره على عدة مواقع الكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي، أنهكها البحث والقتال من أجل حياة كريمة. ترعرعت في مخيم اليرموك. حيث تزوج والدها في سن متأخرة ولم يتمكن من إنجاب إخوة لها رغم محاولاتهما المتكررة. فقدت والدتها بسبب مرض السرطان، جزء من روحها مات كذلك وهي لا تزال ابنة الخامسة عشرة عاما، تحملت المسؤولية باكرا جدا.

أنهت دراستها الجامعية بصعوبة تحاول الاهتمام بوالدها الذي بدأ يفقدذاكرته تدريجيا ونتيجة لذلك فقد عمله.

بدأت الأوضاع تزداد سوءا في سوريا والحياة أثقلت عليها وعلى والدها، ثم حصلت على عمل ساعدهما لفترة من الزمن ولم تتمكن من الحفاظ عليه بسبب الأوضاع الحالية.

علي هو زميلها الذي لطالما وقف إلى جانبها وساندها، تعرفت عليه خلال دراستها الجامعية، لم يكن حبا من النظرة الأولى، وبمرور بعض الوقت على صداقتهما تحول الأمر بينهما تدريجيا إلى شيء مميز. شعرت بهذا التحول وقد دغدغ قلبها، لكنها تمكنت من السيطرة عليه. لا تريد فقدان صديق مميز إن لم تنجح الأمور بينهما، لذلك فضلت تجاهل تلميحاته، وأغلقت كل الأبواب أمامه ،فاعتقد بأنها لا تبادله المشاعر. ظن بأنها تبحث عن حب يأتيها كالعاصفة يجرفها معه، رغم أنها تفضل الحب الذي يأتي رويدا رويدا، ليصبح شيئا مميزا قويا وأبديا. لكنه لم يعرف ذلك. لذلك خسرته كصديق حيث بدأ يبتعد حتى اختفى من حياتها كليا. وهنا فقدت جزءا ثانيا من روحها، كأنها تشتاق إلى شيء ما دائما ،ولا تعرف كيف تترجمه.

الواقع الذي لم تعترف به في البداية لنفسها؛ أنها شعرت بالخوف ألا تكون على قدر هذا الحب، وخوفها من ردة فعل والدها. ترعرعت كسُنية وهو ينتمي للعلوية وهذا ما سيرفضه والدها الفلسطيني بسبب اختلاف الطائفة الدينية التي يتبعها كل منهما وبسبب تفضيله لشاب فلسطيني.

لم تتجرأ أن تخبر عليّ بذلك، كانت تعرف أنها لن تتمكن من فعلها. رغم أنها لمتشعر يوما بهذا الفارق بينهما، ولم يشكل انتماؤه لطائفة مختلفة عنها أي فارقيذكر.

في يوم وليلة فقدت أثر والدها الذي لم يعد إلى المنزل ليلا، ومرت أيام وشهور لكنها لم تفقد هذا الشعور بأنها ستلتقي به مجددا؟ بعد تأزم الوضع اضطرت للنزوح خارج دمشق إلى تركيا بحثا عن حياة جديدة آمنة، إلا أنها شعرت وكأنها تفقد جزءا ثالثا منها ومن سعادتها بفقدانها والدها وخروجها من سوريا أيضا. تشعر بأنها ناقصة، تعلمت أن تكون مقاتلة، لم تمل عن البحث عنه واليقين في داخلها ظل قويا يخبرها بأنها ستجده رغم مرور ثلاثة أعوام على فقدانه.

أقامت في اسطنبول في الجانب الآسيوي أثناء وجودها في تركيا وعملت في صالون حلاقة بمنطقة تقسيم حيث ترتكز السياحة في هذه المنطقة، رغم بعد المسافة بين عملها ومقر سكنها، لكن هذا أفضل ما وجدته حيث يمكنها دفع إيجار منخفض مشاركة لعائلة تركية، هذا السعر اقتصادي مقارنة بالجانب الأوروبي الذي يكتظ بالسياح وبأسعاره السياحية المرتفعة.

في البداية وجدت صعوبة في التواصل مع الشعب التركي لأنه لا يتحدث اللغة الإنجليزية، وكذلك تفضيله التحدث بلغته الأم لذلك تجد الأجنبي المقيم هناك يجيد التحدث بلغة البلد بوقت قياسي، رغم أنها لم تحتج إليها في عملها، حيث أغلب الزبائن من جنسيات مختلفة ويفضلون اللغة الإنجليزية في التعامل. لكنها أحبت الثقافة التركية وأحبت لغتها كذلك. ثم عملت في شركة سياحة حيث يعتمد عملها على اللغة العربية مركزا على السائح العربي والخليجي خاصة.

في اسطنبول ليس صعبا أن تجد مُ هربا مستعدا لكي يساعدك على الوصول إلىأحد الدول الأوروبية مقابل مبلغ مالي، هذه المهنة تعتمد على المجازفة وحلفاليمين " على الطالع والنازل " والوعود التي لا يصُدق منها إلا قليل القليل.

رغم الصعوبات التي مرت والوحدة التي قتلت روحها وخوفها من عالمها الجديد ،وصبرها الذي يكاد ينفد في العثور على والدها وإلى " عبوطته " حتى في اللحظات الذي ينسى اسمها لم ينس أن يعطيها هذه "العبوطة". كانت مستعدة لفعل أي شيء حتى تجده.

أثناء لحظة ضعف بحثت عن عليّ من خلال الفيس بوك، ووجدته. ما تعرفه أنه نزح هو وعائلته إلى إحدى الدول العربية المجاورة بعد تدهور الأحوال ،لاحقا انقطعت الأخبار بينهما كليا.

لم يبادر أي منهما للوصال. لم تتجرأ أن ترسل إليه إضافة رغم أنها منذ فترة تتابع أخباره خفية؛ رغم قلة منشوراته، تعرف إن بحث عنها فلن يجدها بما أنها لا تستخدم اسمها الحقيقي عبر الفيس بوك.

اليوم بالذات شعرت بالشوق الكبير له حين رأت صورة وأعلى الصورة شرح بأنه التقطها قبل عام ونصف. يبدو رائعا رغم فقده لبعض الكيلوغرامات؛ يقف في ساحة تقسيم حيث الترام بلونه الأحمر يسير من خلفه عابرا الشارع الذي يمر فيه أكثر من مليون شخص يوميا حيث المحلات التجارية تلتصق بجانب بعضها البعض. شعر ت بالقهر؛ قبل عام ونصف كانت ما تزال في اسطنبول، كانا في نفس المدينة ولم يدركا ذلك. لم يتقابلا مرة على الأقل. هذا الشوق عبرها بغتة بمجرد

رؤيتها له. وهذه الاحتمالية بأنهما كادا يجتمعان في بلد أجنبي، وجودهكذلك في مكان قريب جدا من مقر عملها السابق. هذا كله غمرها بحالة منالجنون وحنية لامست قلبها كنسمة هواء خفيفة.

اليوم وجدت شجاعتها لترسل الإضافة الفيسبوكية، لن تخبره من هي وسترى ماذا سيحدث. تعبت من عقلانيتها ومن خوفها. صوت صغير بدأ يهمس في أذنها بأنه ربما يعيش قصة حب مع فتاة أخرى. أو أنه أب لعائلة صغيرة. هذه الاحتمالات أعطتها بعض الشجاعة لتحاول وكذلك جعلتها في حالة خوف من أنها خسرته فعلا رغم أنها ليست واثقة أنها تريد منه شيئا.

غفا تامر بين ذراعي سارة، فوضعته في سريره. أطفأت المصباح وبهدوء شديد أغلقت باب الغرفة من خلفها. مرت بطريقها أمام باب غرفة مها المفتوح على مصراعيه. تجلس ساهمة في ملكوت الله، لا ترى سارة تراقبها من أمام الباب.

اقتربت سارة منها ببطء ثم همست بجانب أذنها: لمعة عيونك اليوم، شو قصتها ؟

التفتت إليها وهي تداري ارتباكها: لا شيء خاص.

خرجت سارة متمنية لها ليلة سعيدة دون أن تلح عليها أكثر.

مها التزمت الصمت، لم تشعر يوما بالراحة تجاه مريم، الفتاة العراقية التي هاجرت إلى بلجيكا منذ عدة أعوام مع عائلتها وهي لم تتعد التاسعة عشرة بعد تاركة خلفها أصدقاءها وحبيبها وجامعتها. أكملت دراستها في الجامعة الفلمنكية الحرة في بروكسيل حيث درست العلاقات العامة الدولية، حتى هذه اللحظة لم تعد إلى العراق ولو لمرة واحدة.

الاختلاف يبدو واضحا بين مها ومريم وبمجرد التقائهما تنتشر الطاقة السلبيةويلاحظ الجميع ذلك، منذ تعارفت مها على سارة وجدتها سهلة المعشر رغمأنهما لا تتفقان كثيرا، ولا تختلفان كثيرا، كل ما في الأمر بأنهما تفاهمتا. حصلت الآن على اللجوء الحماية في بلجيكا وتستمر في البحث عن منزل خاص لتستأجره، حين وصلت بلجيكا أقامت لمدة خمسة شهور في مركز تابع للصليب الأحمر؛ انتظارا للتعامل مع قضيتها في مكتب اللجوء، حيث تم الموافقة على طلبها ومنحت اللجوء. الاسم المتعارف عليه بين اللاجئين هو اللجوء الإنساني.

بعد الوضع الحالي في سوريا وتأزم الصراع، أصبح من السهل الحصول على الإقامة الأوروبية. بينما لم يكن سهلا في السابق للمواطن السوري الحصول على اللجوء السياسي أو اللجوء الإنساني بل يكاد يكون مستحيلا، بينما كان أمرا سهلا للمواطن العراقي، ولكن منذ انسحاب القوات الأمريكية من هناك، وما حصل في سوريا خلال نفس الفترة الزمنية. بدأت معايير الأمور تختلف، لتعطي الأهمية للمواطن السوري ، وبدأت تصبح أكثر صعوبة للمواطن العراقي.

عادة ما يواجه اللاجئ عدة صعوبات في بداية طريقه، اعتياده على الثقافة الغربية، وتعلم لغة البلد. الأمور معقدة بالنسبة للغات المعتمدة. لذلك نجد اللاجئ يسعى جاهدا لدراسة كل من اللغة الهولندية والفرنسية.

ما تواجهه مها هوعدم تمكنها من استئجار بيت صغير يناسبها، حيث أن هذه عقبة تواجه اللاجئ الجديد؛ خوف المواطن البلجيكي من تأجير منزله للأجنبي اللاجئ الذي ما يزال يعتمد على مساعدة مالية من الدولة لكي يقف على قدميه.

من يجازف عادة هو المؤجر المغربي والتركي. لذلك هي تقيم مؤقتا في منزلسارة حتى حصولها على منزل.

تعرفت مها على كل من سعاد وشروق ومريم من خلال سارة، اللاتي كن سعيدات أيضا لتكوين مجموعة مختلفة ثقافيا واجتماعيا. الغريب في الأمر هو قدرة سارة على أن تكون صديقة جيدة للفتاة المتحررة، والفتاة المحافظة، والفتاة

" الفلتانة ".

تعرف كيف تتأقلم بمرونة عالية مع كافة أنواع الشخصيات، أما مها تجد صعوبة في التأقلم أحيانا.

## التـجـمـع

## لــور/2016

بمجرد وصولي إلى المحطة سمعتُ بعض الأصوات فتتبعتها. يوجد عدد قليل متجمع أمام السفارة الاسرائيلية. تذكرت أثناء الانتفاضة الثانية والأيام التي قضيناها أمام هذه السفارة وكانت الأعداد كبيرة من الطلبة للتنديد بما يقوم به الاحتلال في حق الشعب الفلسطيني. لمدة خمس عشرة سنة استقصيت نفسي عن كل هذه الفعاليات. بدأ البعد منذ حملي بتوماس ،حيث كثفت كل طاقتي نحو عائلتي.لا أتذكر أني شاركت في فعالية واحدة بعد عودتي من فلسطين، حتى الإجازات التي قضيتها فيما بعد كانت في سوريا أو الأردن. يبدو وكأنني قطعت كل علاقتي مع الأرض، الشيء الوحيد الذي احتفظت به هو علاقتي مع زينة والجد، كناّ نتحدث في المناسبات العامة، مثل الأعياد الدينية والمناسبات الخاصة المميزة، ثم بدأت هذه المكالمات تنحصر بالرسائل النصية.

اقتربتُ من التجمع، وبدأت أنقل بصري بين الجميع. حتى تأكدتُ أن سارة ليست هنا. قد تكون غير مهتمة بهذه الفعاليات، وهكذا ستكون فرصة ملاقاتها مجددا ضعيفة جدا. طلبت الفتاة المجاورة أن أساعدها في حمل العلم الفلسطيني. تلتقطه من طرفه الأيمن وصرت أنا أرفعه من الطرف الأيسر.

أخبرتني : صديقتي التي كانت تساعدني في حمله اضطرت للعودة إلى المنزل ،لأن ابنها مريض.

_ هذه هي حياة الأم، كثير من الوقت من أجل أبنائها، ويكبرون دون أن تلاحظ ذلك، هل لديك أبناء ؟

_ لا، ولكني على وشك الحصول على ابنة عمرها ثلاث سنوات.

_ جميل جدا، من أي بلد ؟

_ سأتبناها من المغرب، ما زلتُ أقوم بالإجراءات اللازمة.

أعرف أن الإجراءات تأخذ وقتا لذلك قلت متضامنة معها : تحتاجين إلى الكثير من الصبر.

_أجل، لكني لا أطيق صبرا حتى تصبح هذه الصغيرة في منزلي.

بدأ الناس بمغادرة هذا التجمع، الشمس تختفي خلف السحاب، أدركتُ أني لا أعرف اسمها، بدأنا الحديث منذ ربع الساعة، فاعتذرت منها وأنا أخبرها : أنا لور.

ابتسمت بوجهي وهي تخبرني : أنا شروق .

أعجبني اسمها وأخبرتها بالعربية : مثل شروق الشمس !

ابتسمت وأجابتني باللهجة المغربية : بالصح.

آثارها الفضول حول لغتي العربية ،انتقلنا مجددا إلى اللغة الهولندية في التواصل حيث تعد لغتها الأم بما أنها ولدت في بلجيكا. هاجر والدها في الستينات إلى هنا للعمل في المناجم. هذه الهجرة كانت عبارة عن اتفاقية في 17 فبراير 1964 منقبل وزيري الأشغال البلجيكي والمغربي آنذاك ليون سيرفي والتهامي الوزاني ،حيث

كانت بلجيكا بحاجة إلى أيد عاملة. أبرمت بلجيكا العديد من الاتفاقيات مع عدة دول منها المغرب وإيطاليا وتركيا.

أخبر تهُا : لقد تعلمت اللغة العربية منذ وقت طويل، واستمرريت بالسفر إلى الأردن ومصر بعد زواجي كذلك، وقد علمتها لابنتي وهي تتحدث القليل من العربية، ولكن ابني توماس لم يهتم بتعلمها.

شروق فتاة جميلة، ببشرتها البيضاء وشعرها الأسود، تبدو في بداية الثلاثين ،ولكنها في حقيقة الأمر تبلغ التاسعة والثلاثين. عزباء رغم شغلها منصبا مهما في جامعة لوفن الكاثوليكية. تتحدث أربع لغات بطلاقة. جمالها وذكاؤها كانا لعنة عليها كما يبدو. ففتاة جميلة وذكية قد تخيف بعض الرجال، وعادة لا يوجد الكثير منهم قد يجد هذا التحدي ممتعا. خاصة حين تكون امرأة عملية ولا تعرف كيف تستخدم أنوثتها. لابد وأنها جريئة لكي تتخذ مثل هذا القرار بتبني طفلة؛ لتصبح أما عزباء في مجتمعها المغربي الذي قد يجد الفكرة غريبة، ربما يسهل هذا الأمر استقرارها في بلجيكا.

كنت لاحظت رجلا من متديني اليهود، يقف بين الناس، فأثار فضولي

_ من هذا الرجل ؟

التفتت شروق حولها وهي تسألني : من تقصدين؟

فضلتُ عدم استخدام يدي للإشارة، وصفته بالكلمات حتى لا يحرجه الموقف إنانتبه إلينا أو يحرجنا نحن إن لم يعجبه الأمر. لذلك قلت لها " اليهودي المتدين ".

_ عرفته! فقد تحدثنا في بداية هذه الوقفة، هو يهودي متدين من طشابيم المغرب.

كنت لأول مرة أسمع هذه الكلمة، ولم أفهم ما تقصده لذلك سألتها : ماذا تعني طشابيم ؟

_ دراستي للتاريخ ساعدتني لأفهم الشرق الأوسط والوطن العربي خاصة ،فأنا عشت طوال حياتي في بلجيكا، وبعض الإجازات الصيفية للدار البيضاء، لم تكن كافية. طشابيم هم اليهود الأصليون الذين سكنوا المغرب قبل الميلاد، وهناك نوع آخر وهم اليهود المغوراشيم وبالعبرية تعني المطارد. هم يهود الأندلس الذي تم طردهم والمسلمين من قبل فرديناند وإيزابيلا.

_ ما أعرفه بأنه منذ خمسة عقود أو ما يزيد ظهرت حركة صهيونية في مدينة مكناس، كانت مسؤولة عن تهجير العديد من يهود المغرب إلى إسرائيل.

_ هذا صحيح، لكن بعد عام 1963 لم يعد ليهود المغرب الرغبة في الذهاب إلى " إسرائيل". لم يعودوا يذهبون لأنهم فهموا أن اليهود المغاربة هناك يعانون من التمييز وتتم معاملتهم معاملة سيئة ولا يمكنهم الحصول على عمل. لذلك هاجروا إلى فرنسا وإسبانيا فقد أعطى الصهاينة تأشيرة الرحيل لليهود المغاربة فكسروا بذلك وربما إلى الأبد، التعايش الذي كان موجودا بين اليهود والمسلمين في المغرب.

قلت لها أخيرا: لا أعتقد أنه أمر سهل، فهجرتهم إلى أوروبا ستكون أسهل، هذا إنقرروا يوما الهجرة.

_ معك حق، ابتعدنا بنقاشنا ونسيت إخبارك عن هذا المتدين.

_ ما قصته؟

_ هو مؤيد لأحقية الفلسطيني، وضد التطبيع !

_ التطبيع ؟

مما قاله " يجب على الناس أن يفهموا كيف يعمل الصهاينة، فهناك من يقول نحن متسامحون، ونريد التحاور ولا نريد الحرب، وهذا هو المشكل.

كنت قد انشغلت عن اهتمامي بالقضية الفلسطينية لفترة طويلة، وبدأت عائلتي تأخذ أغلب اهتمامي، لكن هذا لم يمنع متابعتي للوضع هناك.

اعترفتُ حزينة : منذ فترة طويلة لم أقم بأي نشاط، رغم اهتمامي بهذه القضية النبيلة للفلسطينيين.

عقبت شروق: هذه الحياة.

انتهى التجمع بدون أي صدى أو اهتمام من قبل الصحافة ولم أنس تبادل أرقام الهواتف مع شروق. عدتُ إلى منزلي وقد تغير الجو كليا من مشمس إلى بارد. فارتديت معطفي الصيفي الذي حملته في آخر دقيقة من خروجي المنزل. الكثير من الفتيات اليافعات ارتدين التنانير القصيرة والفساتين استمتاعا بهذا الجو ولا يبدو أن أيا منهن تبالي بتغير الطقس إلى بارد قليلا. ومع هبوب الرياح تتطاير التنانير وهن يسرن دون أن ينزعجن. العيش في أوروبا يعني تفحص حالةالطقس قبل الخروج من المنزل. فقد نرتدي ملابس صيفية في يوم واليوم الذي يليه ملابس شتوية.

كل منا يملك بداخله الذوق الجيد والسيء. السيء هو ما نكتسبه من خلال العادة ،كأن يحتسي شخص كأسا من الشاي محلاة بثلاث ملاعق من السكر، ولا يمكنه الاستمتاع بالشاي دونه. لذلك علينا أن نكون حذرين في عاداتنا التي في الغالب قد تكون سيئة، ولكنها تسعدنا. كقراءة كتاب ليس جيدا ويعجبك، فهناك قارئ جيد وقارئ سيئ، والسيء هو ما اكتسبه من سلسلة قراءات سيئة.

منذ فترة لا يمكنني المجازفة بمشاهدة فيلم، دون أن أعرف نهايته. ليس لدي قدرة على احتمال النهايات الحزينة؛ لذلك أجدني أحرك السهم نحو أخر التسجيل ومن هنا أقرر إن أردت مشاهدته أم لا. هذه طريقتي الخاصة في تجنب الألم. طريقتي هذه تثير استغراب توماس، منذ فترة والوضع بيننا قلق، بعد آخر مرة بسبب معاقبتي له في غرفته. حيث لم يعتد مني هذه المعاملة. لذلك جزء كبير من اللوم يقع على عاتقي، لأنني كنت حليمة معه دائما. رغم أن العلاقة بيننا لم تتحسن إلا أنه بات يحترم قوانيني أكثر مضطرا. أحاول أن أجعل علاقتنا أكثر مودة ،مبنية على الحب وليس العقاب وحده. لكنه لا يترك لي مجالا، والهاجس الأكبر في رأسي ودائما ما يقلقني، بأنه حين يبلغ الثامنة عشرة من عمره ويبدأ دراسته الجامعية سيهجرني نهائيا لأنه سيمتلك الخيار. من هنا بدأتُ أستدرك أن بعض قراراتي التي اعتقدتُ بأنها الأفضل له حين كنت صغيرة في بداية العشرين لم تكن صائبة. والزواج التي اعتقدته زواج العمر، لم يعد موجودا، ونتيجة لذلك؛ كلالثوابت التي بنيت عليها حياتي بدأت تتغير.

# 4

# وجهات نظر

**مـــها**

تجلس في غرفتها كالعادة، لا تفضل مكانا غيره، وهذا ما يقلق سارة عليها، لذلك تحثها على الخروج من المنزل، مها دائما ما تجد عذرا جيدا لكي لا تغادرغرفتها. قبل عدة أيام احتفل الوطن العربي بيوم الأم الموافق للواحد والعشرين من شهر مارس في حين يحتفل به الأوروبيون بشهر أغسطس. هذا اليوم يتسم بالحزن بالنسبة إليها، حيث تشتاق إلى والدتها، والشوق الأكبر لوالدها الذي لا تعرف عنه شيئا منذ فترة طويلة. في هذا اليوم من كل عام اعتادت شراء هدية لتقدمها إلى والدها وبذلك تخبره على طريقتها بأنه بالنسبة إليها الأم أيضا التي فقدتها وهي صغيرة. أبوها فعل ما بوسعه لكي يغمرها بالحب ،فأجاد دور الأم والأب معا ،وهذا نادرا ما يحدث.

ما أسعد سارة اليوم هو أن مها ارتدت ملابسها استعدادا للخروج. شعرت مها بيد تعتصر قلبها حين فتحت باب المنزل والهواء القوي في الشارع يسيل دموعها ،فشعرت بالراحة، فمنذ فترة لا تعرف كيف تبكي. وكأن الطبيعة تحالفت لتساعدها في أن تنفث عن مشاعرها قليلا. رغم مرورها بأوقات صعبة خلال تواجدها في تركيا، في حينها لم تجد الوقت الكافي لكي تلتقط أنفاسها، عملت ليلا ونهارا؛ لكي توفر المال الكافي الذي ساعدها لاحقا على الهرب إلى أوروبا. كان صراعهاالدائم من أجل البقاء. إلى أن وصلت بلجيكا وقد استنفدت طاقتها كاملة، القوة التي لطالما ساندتها بدأت تخذلها، فهي ببساطة شديدة قد تعبت، ولم تعد قادرة على التحمل أكثر،

أو المصارعة مع هذه الحياة. أكثر ما تحتاجه هو أن تجده. في بروكسيل أتيح لها المزيد من الوقت لكي تبحث عن والدها وهذا شيء تقدره، أما أثناء تواجدها في تركيا فلم تجد الوقت الكافي وسط المشاكل التي عايشتها والصعاب التي واجهتها، ورغم كل ما اعترضها ظلت قوية.

وصل ت إلى السوق العربية القريب من محطة القطار الشمالية في بروكسيل ،باحثة عن نوع معين من الكولونيا حيث أن لونها أصفر غامق يظهر واضحا من خلال الزجاج الشفاف بفتحة صغيرة في الأعلى دون استخدام للرذاذ. يستخدمها والدها بعد حلاقة ذقنه استعدادا لصلاة الجمعة في المسجد، حيث يضع على كفيه القليل، فتنتشر الرائحة بالمكان، حتى بعد مغادرته المنزل. هذه الصورة ما تزال عالقة في ذكرياتها. لذلك قبل مغادرتها سوريا، لم تتمكن من أخذ الكثير من أغراضها، لكنها حافظت على هذه العبوة التي كان يستخدمها، فهي كل ما تبقى لها منه، ومنذ تللك اللحظة تضع القليل منها في غرفتها في ظهيرة كل يوم جمعة حتى هذه اللحظة، فتحتضنها رائحته، فتشعر بوجوده داخل المنزل، فتروي هذه بعضا من اشتياقها له.

بحثت كثيرا ولم تتمكن من إيجاد هذا النوع، حتى أخبرها أحد التجار أنه يمكن شراؤها من أحد المحلات السورية، فذهبت مباشرة إلى هناك، دون أن تنتظر يوما آخر بعد نهارها الطويل. وفي قلبها أمل كبير أن تجد هذا النوع بالذات. حين عادت إلى المنزل، وجدت سارة تجلس بجانب تامر في الصالة وبعض الأوراق أمامهما، ألقت عليهما التحية ثم دخلت إلى غرفتها بعد أن غسلت وجهها، بدلت ملابسها

بأخرى أكثر راحة، فتحت جهاز الكمبيوتر، لم يكن هناك جديد يذكر، فشعرت بالإحباط. ظلت على هذه الحالة منذ فترة طويلة، فأصبحت هذه الخيبة جزءا لا يتجزأ من يومها.

كانت تسمع صوت سارة تساعد تامر على إنهاء واجبه المدرسي، ونغمة صوتها ترتفع في حين وتنخفض في حين آخر، لولا هذه الأصوات التي تسمعها داخل هذا المنزل لربما فقدت عقلها.

فتحت دولاب الملابس، ووضعت مغلفا بجانب ثلاثة مغلفات موجودة في الرف السفلي، نظرت طويلا نحو الورق الملون للمغلفات. ضحكات تامر وسارة الآتية من الصالة جعلتها تفيق من أحلامها. ما تزال تتذكر ذلك اليوم، حين بدأ كل شيء بعده، وتغيرت حياتهما منذ تلك اللحظة إلى الأبد.

عادت من جامعتها مبكرا على غير العادة، وقد حصلت على نتيجة امتحاناتها النهائية فأرادت مفاجأة والدها بهذا النجاح لتسعده. دخلت باب المنزل ولم يكن يجلس كعادته أمام التلفاز في هذا الوقت من اليوم، ولم يحضر وجبة الغذاء كعادته. نوع من الاتفاق غير المعلن بينهما، أن يحُضر هو وجبة الغداء أثناء دوامها الجامعي. هي تقوم بتحضير وجبة العشاء. دخلت إلى غرفته بهدوء شديد وجدته مستلقيا على سريره، فاقتربت ببطء من السرير واقتربت بوجهها في اتجاه فمه، فشعرت بأنفاسه تلامس بشرتها. اطمأنت متنهدة ثم خرجت بهدوء كما دخلت مغلقة الباب من خلفها. عاشت مع هذا الخوف منذ فقدانها لوالدتها، حاولت أن لا تدع هذا الإحساس يسيطر

عليها. رغم أن والدها كان قد اكتسب بعض العاداتالجديدة بعد تقاعده، لكنها لم تلحظ سابقا تأخره في النوم.

دخلت إلى المطبخ فحضرت التبولة والكبة النيئة، بعد أن وجدت البرغل منقوعا في الماء، والكفتة المثلجة موضوعة على رف المطبخ وقد ذاب الثلج عنها. خرج والدها من غرفته وهو يراها تحضر المائدة.

_ حضرتِ العشاء باكرا .

اعتقد ت للوهلة الأولى أنه يمازحها، وحين رأت ملامح وجهه الجادة تأكدت أن أمرا ما يحدث. فأخبرته بأن الساعة لم تتجاوز الثالثة، نظر نحو الساعة المعلقة في الصالة، وهو يتساءل : ألم نتناول وجبة الغداء بعد؟

لاحظت بالسابق أنه ينسى أين يضع بعض الأشياء، ولكنها لم تأخذ الأمر على محمل الجد، ولكن الأمور بدأت تأخذ منحنى جادا، لذلك قررت الذهاب إلى الطبيب. ثم علمت بأنه مصاب بالزهايمر. رغم هذا المرض الذي أصابه إلا أن علاقتهما لم تتأثر، بل جعلته أكثر قربا وربما ظنت بأنه لا يمكن أن تصبح أكثر قربا مما كانت عليه، ولكن الحياة تفاجئ الإنسان دائما.

انتبهت على صوت الهاتف وقد وصلها إشعار ما ،وحين ضغطت عليه لترى ما هو، أدركت بأن عليّ قد قبل طلب الصداقة عبر فيس بوك، فابتسمت رغم تلك الذكريات الحزينة التي تطوف في عقلها.

**مريم**

تجر الحقيبة خلفها والابتسامة تغطي وجهها، إلى أن وصلت الحديقة والشمس مازالت تتصدر السماء، جلست القرفصاء على هضبة صغيرة على حدود البارك ،حيث مكنتها من رؤية واضحة لما حولها. هذه المدينة تبعد ثلاث ساعات عن مدينة بروكسيل بالقطار، أمامها شاب يمدد جسده فوق شال كبير يبدو ملكا لصديقته التي ترمي برأسها على صدره، فيما تقرأ كتابا، لا ترى من حولها ولا تولي اهتماما سوى للكتاب الذي بيدها. الضجة التي تملأ المكان لا تزعجها. ومن جانبهم الأيسر يجلس ثلاثة شباب يافعون يدخنون السجائر بالتناوب خلسة، ثم انشغلوا بهواتفهم النقالة. مّر من أمامهم رجل عجوز وبصحبته كلبه الصغير من نوع " بيشون فريز" يغطي جسده الصغير فرو أبيض مجعد، هذه النوعية تعرف بعدم تغير حجمها.

وعلى الجانب الآخر من الحديقة في أقصى جنوبها، مجموعة من الشباب والفتيات يستمعون إلى الموسيقا، يشربون الجعة، ويستمتعون بالشمس، البعض منهم نصفه الأعلى عار حيث يعرض جسده للشمس رغبة في الحصول على بشرة سمراء.

لاحظت شابا بشرته سوداء وشعره طويل مجدل، يجلس على بعد ثلاثة أمتار منها، نهض متقدما نحوها وسألها بلطف أن تراقب الحقيبة حتى عودته، ففعلت. وحين

عاد شكرها وبدأ حديثا معها، بسبب مزاجها العالي لم يكن صعبا أن تجريحوارا مع غريب في مدينة تزورها للمرة الأولى.

سألها بلطف: هل يمكنني الجلوس بجانبك ؟

وبما أنها تنتظر مجيء حبيبها العراقي، ولم تتمكن من الاتصال به، جلست بهدوء مترقبة قدومه، ولكي تقطع الوقت قبلت أن يجالسها هذا الغريب، الذي يبدو مصابا بساقيه، هناك الكثير من العلامات العميقة تشوه رقبته، وذراعه الأيمن كذلك؛ حيث يمتد جرح عميق من بداية الكف صعودا إلى الكتف، لم تشعر بالخوف رغم أنه من الجرأة أن تتبادل معه الحديث منذ البداية.

أخبرته: لا مشكلة.

تؤمن بأن هناك فرصة تأتي على الأقل مرة واحدة للشخص لتنتشله من فشله، وقد تأتي النصيحة على صورة طفل أو شيخ أو عاهرة في بعض الأحيان. لا يهم من أين تأتي أو كيف، على قدر ما يمكن أن تغير حياة شخص ما، وهي تؤمن بهذه النظرية.

وضع حقيبته الثقيلة وجلس بجانبها، بدا الجرح في يده أعمق عن قرب.

سألته مريم وهي تضحك: رأيتك تخفي شيئا ما في الحقيبة، حشيش؟

توتر قليلا وهو يدعي عدم سماعها جيدا.

_ دخنتُ الحشيش مرة واحدة بصحبة صديقاتي، لم نشعر بشيء.

_ مرة واحدة؟!

_ أحب كوني متيقظة .

_ هل تريدين شراء سيجارة ؟

_ لا، لست مدخنة. لكني مع مبدأ التجربة ثم الاختيار.

_ ماذا تفعل فتاة جميلة وحدها وقد أسدل الليل ظلامه منذ ساعة ؟

_ أنتظر حبيبي العراقي !

_ رغم كل مساوئي، لكنني لم أترك فتاتي تنتظرني بمفردها ليلا !

ضحكت مريم وهي تقول : الرجال أنواع ! وما هي مساوئك ؟

_ أنا موزع " ديلر" وقد قضيت أوقاتا طويلة في السجن.

سرت قشعريرة باردة في ظهرها، استغربت صراحته واعترافه بهذه السهولة لغريبة يصادفها في الشارع. رغم ذلك استأنفت حديثها معه. اعترف بأنه طفل متبنى لأسرة نرويجية، وقد قضى طفولته في دور الأيتام وذلك بعد تعرضه للعنف الأسري من قبل الأب. وقد وصل بلجيكا منذ يومين وقضى ليلته الأولى في دار للمشردين لأنه لا يمتلك المال. تستمع إليه دون ان تتوقف عن مراقبة الحبيبين. ما هي سوى لحظات حتى رفعت الفتاة رأسها عن صدر حبيبها المستلقي حيث نهضت على قدميها بعد أن ساعدها حبيبها ملتقطا يدها مقبلا ثغرها، فاحتضنته والكتاب ما يزال بيدها، ثم وضعته في الحقيبة، وسارا مبتعدين.

ابتعادهما جعلها تشعر بالخواء، فسألته أول ما بدر إلى رأسها دون تفكير.

_ لابد وأنك تتحدث اللغة النرويجية جيدا، بما أنك ترعرعت هناك، وتتحدث اللغةالإنجليزية بطلاقة، كيف حصل ولم تحصل على عمل ؟ ولماذا تختار المخاطرة بتجارة المخدرات ؟

_ ليس سهلا الحصول على عمل.

_ هذه الحجج التي نبرر بها أخطاءنا.

_ كما تبررين لتأخر صديقك !

نظرت إليه للحظات وهي تستوعب ما قاله، هل هي فعلا تبرر له أخطاءه؟ وهل فعلا تسامح هفواته؟ بعد غياب سنوات هل يحمل نفس السلطة عليها؟ إلا أنها متأكدة أنها لم تعد نفس الشخص الذي جاء حديثا من بغداد، لكي يخرسها خجلها ،أو يحرجها نقاش جريء.

أجابته بهدوء : معك حق !

الرجل العجوز بصحبة كلبه، وصل إلى أقصى جنوب البارك، ولم يثر اهتمامه ما حوله أو هذه الحفلة الشبابية والموسيقا العالية، بل تخطاهم بهدوء شديد، وهم لا يزالون مستمتعين رغم غياب الشمس، وقد ارتدى الشباب ثيابهم مجددا واكتفوا بشرب الجعة والفتيات تشاركهن المرح.

نهضت من مكانها ورفعت حقيبتها عن الأرض لتجرها خلفها متجهة نحو المحطة بخطوات سريعة، لكي تستقل القطار الأخير قبل منتصف الليل بعد أن استأذنت هذا الغريب.

منذ فترة طويلة لم تشعر بالخوف، هذا الإحساس جعلها تشعر بأنها حية، فقررت أن تهرب بجلدها قبل أن يجدها شرطي بلجيكي مقتولة وملقاة في شوارع هذه المدينة.

كان قد اتصل بها، ليخبرها أنه وصل بلجيكا، واتفقا أن يتقابلا في اليوم التالي من وصوله، ولكن ما حدث بأنه لم يكلف نفسه عناء الاتصال والاعتذار عن تأخره الذي امتد أربع ساعات، فعادت إلى بروكسيل وفي داخلها خيبة أمل لم تشعر بها منذ فترة. عادة ما تتعامل مع الأمور بموضوعية، أما معه فالأمور دائما ما تتخذ صورة مغايرة. أغلقت هاتفها ولم تفتح أ يّاّ من حساباتها، لكي لا ترى رسائله. شعرت بالانزعاج من لامبالاته بعدم الاتصال، وتركها وحيدة ليلا في شوارع مدينة لا تعرف بها شخصا.

أقفلت باب الحمام من خلفها، وجلست على كرسي المرحاض بعد أن أغلقته ،سهمت قليلا لا تجرؤ على البكاء، فكرت : " كم كانت ستكون حياتي مختلفة لو كان تعرفي إلى الجنس صحيا ".

نتيجة للمجتمع الذي نشأت فيه، ووقوعها في الحب كذلك مع رجل يكبرها عمرا وخبرة، علاقتهما السرية ونتائجها عليها بمداها البعيد، هذا كله جعل منها امرأة تخشى أن تترك نفسها على سجيتها؛ خوفا من أن تقع على رأسها. قررت أن تقع على قدميها إن كان لابد من الوقوع.

شعرت بثقل كبير يجثم على قلبها وكأن العالم اتفق ضدها، شعور بعدم التقدير ،وحيرة من أن تتمكن المخاوف منها. سقطت دمعة يتيمة على خدها الأيمن ،مسحتها

بسرعة، فعرفت ما هو وجع اللحظة حين ترغب في البكاء ولا تستطيع ،أرادت أن تسكب كل مخاوفها وحيرتها داخل كأس زجاجي فارغ ثم تكسره. لم تشعر بالوقت يمر وهي حبيسة في الحمام النسائي، تحمل داخلها حلما كبيرا تريده أن يصبح حقيقة.

حانقة على هذا العالم، على نفسها وعليه ،لأنها تفقد السيطرة أمامه، بعد هذا الغياب الطويل تبذل مجهودا لكي تقابله، في حين أنه لا يفعل ذلك. ألغت كافة مواعيدها وحملت حقيبتها وذهبت لمقابلته بمجرد أن ترك لها رسالة قصيرة يخبرها بوجوده في بلجيكا. رغم الغياب الطويل إلا أنها تحمل في قلبها ضعفا تجاهه لا تحمله تجاه رجل آخر. هذا ما يزعجها. لم تره منذ عدة سنوات وها هي تتساءل هل نسيته أو تحمل له الحب نفسه، أو ما هو إلا ضعف تجاه حبها الأول؟

ذهبت إلى المدينة التي يقيم بها وتبعد عن بروكسيل ثلاث ساعات بالقطار. قد يعتقد بأنها تلك الصغيرة التي يعتبرها أمرا مسلما به وملكا له. أرادت أن تراه بعد نضوجها، فضولا تجاهه، هل ما يزال يبدو شابا، أو أصبح أصلع وبكرش كبير؟ هل هو قادر على جذب المرأة إليه كعادته أو فقد لمسته؟ هل سيعرفها حين يراها ،أو قد يندهش منها.

لكنها عادت بخيبة أمل ومع أسئلتها التي تُركت دون أجوبة وقد أزعجتها لامبالاته وإهماله.

فتحت هاتفها بعد يومين لتستلم رسائل واتصالات من صديقاتها، فضحكت وهي ترد عليهن برسالة قصيرة " ماكو شي ".

ثم انهالت الرسائل تسألها عن سبب غيابها، ما الذي حدث معها وقد قلن إنهن لن يقبلن ردودها دون تفاصيل مفصلة. اكتفت بالابتسام لكنها لن تخبرهن عن خيبتها شيئا ولا عن سفرها بالقطار ثلاث ساعات لترى حبها الأول بعد غياب طويل ،وأنه تخلف عن موعده تاركا إياها في الشارع وحيدة تنتظر. عادة ما تحتفظ بكل التفاصيل لنفسها وستفعل هذه المرة أيضا.

خرجت في المساء إلى سان جيري، جلست تنتظر صديقتها، وحين تقدمت منها النادلة الشقراء الجميلة، نظرت إليها بتمعن كبير، ومن ثم استأذنت منها قبل أن تسألها ماذا تطلب، وما هي سوى ثوان حتى عادت وبيدها شيء ما، وقفت أمام مريم مباشرة وهي تمد إليها ورقة بيضاء مرسوم داخلها وجه فتاة.

_ هذه أنت ؟

نظرت مريم إلى الورقة وإلى النادلة وهي حائرة، تشبهها كثيرا هذه الملامح ،ولكن قد تكون محض صدفة.

قالت مريم مبتسمة : هل أصبحت مطلوبة للعدالة ؟

أجابتها مبتسمة : هذه لك، تركها شخص ما في الأمانات.

ابتعدت مما ترك مريم حائرة وكأنها تنظر عبر المرآة، متسائلة من هذا الذي يحفظ وجهها بهذه الدقة، من يجيد الرسم بهذه الصورة الحية ؟ حين وصلت صديقتها لم تتمكن من مجاراتها في الحديث، وظلت هذه الرسمة عالقة في رأسها.
استأذنت متعللة بالنعاس، ولم تنس أن تنظر حولها جيدا لعلها تجد شخصا ما تعرفه أو مألوفا يكون هو من أرسلها لها. خرجت بخيبة أمل وبسعادة خفية، لا يهمها من

أرسلها ولكنها سعيدة بهذه الهدية. وظلت تفكر به كثيرا أثناء العودة إلى المنزل. فكرت أن تعود وتسأل من تركها لها، فقد نسيت أن تفعل إثر المفاجأة.

فتشت الورقة جيدا لعلها تجد توقيعه أو رقم هاتف، أو علامة تدلها عليه، رغم ذلك لم تتمكن منها خيبة الأمل، فقد كانت هذه اللفتة الجميلة والمفاجئة من هذا الشخص تمس شيئا في داخلها، فهي عادة ما يلفتها البدايات غير المألوفة والتي تحمل طابع الجنون. وهذا الرجل عرف كيف يدخل عقلها، وهذه إشارة جيدة حيث ليس من السهل إبهارها. هاهو عرف كيف "يبهرها" .

حين عادت إلى المنزل، حضرت وجبة سريعة لتتناولها أمام التلفاز، ولكنها لم تتمكن من مشاهدة الفيلم وتفكيرها مشغول بشيء آخر، تشعر بحاجة ملحة لأن تتشارك ما حدث لها مع شخص ما، لم تجب سارة الهاتف حين هاتفتها فطلبت رقم سعاد التي أجابتها بسرعة : صوتك يبدو سعيدا، ماذا حدث؟

_لاشيء، لكن ...

_ لكن؛ هنا القصة !

_ أنا في حالة انبهار.

_ موقف؟ أو شخص ما ؟

_ القصة !

_ والشخص ؟

_ لا أعرفه بعد

_ ماذا تقصدين ؟

_ شخص رسمني بدقة عالية.

_ إذا، هناك من نجح في إبهارك؟

_أجل !

شعر ت بالراحة حين تشاركت هذه التفاصيل مع صديقتها، مما ترك داخلها أثرا جميلا.

_ الأسئلة في الرأس هي ما تتعب ،والإجابات تحزننا ولكنها في النهاية تحررنا.
نهضت عن مقعدها ثم أخذت حماما ،لتنام دون هدهدة.

في الصباح استيقظت باكرا ومزاجها رائق. ارتدت بلوزتها التي تصل إلى أعلى الخصر بقليل مع حمالتين عريضتين وبنطالها الأسود الضيق، مستعدة لتمارس رياضة الجري حول الحديقة القريبة من المنزل، رغم صراعها الدائم مع والديها بسبب طريقة لبسها، لكنها دائما ما تجد طريقة لتقنعهما أو أنهما يرضيان بالأمر الواقع. حتى اعتادا طريقتها في اللبس. في صباح يوم السبت عادة ما تجد العديد من ممارسي رياضة الجري حول الحديقة، منهم من يستمع للموسيقى من خلال سماعات الأذن وآخرون يمارسون هذه الرياضة كأزواج.

لمحت عدة مرات نظرات المارة إلى جسدها، وهي تعرف أن الفتيات الأوروبيات لا يمتلكن مفاتنها البارزة. حجم صدرها لطالما سبب لها الإزعاج حين تمارس

رياضة الجري، وفيما بعد اعتادته وبدأت تشعر بالزهو حين أدركت أنها لم تكن تقدر ما وهبها الله من جمال جسدي.

تجري وهي تفكر " كيف يمكن أن يبدأ أسبوع بهذه القسوة و ينتهي بهذا الجمال " رغم أنها غير متفائلة باستمرارية هذا الشعور، فهذه ليست المرة الأولى التي تظن أنها قابلت شيئا مميزا، وما يلبث أن يبدأ هذا الشعور بالزوال. عادت إلى المنزل جسدها متعرق، استقبلتها والدتها وهي تتحاشى النظر إلى ملابسها.

_ والدك خرج للتسوق، وفضلت الجلوس بالبيت لأني شعرت بالتعب.

_ هل معدل الضغط جيد؟ سأحضر الجهاز وأقوم بالفحص لك.

_ خذي حمامك أولا يا حبيبتي.

_ يمكن للحمام أن ينتظر!

دخلت إلى غرفة والديها وتناولت الجهاز، وقد تعلمت استخدامه من أجل والدتها ،وهو شيء ليس صعبا، وضعت السماعة على ذراع والدتها فوق النبض وضغطت على ذراعيها وبدأت بضخ الهواء وهي تضع السماعة على أذنيها ،وبينما هي لا تسمع النبض تبدأ في ترك الضخ لينخفض الزئبق داخل الأنبوب.

_الحمدالله، الضغط جيد.

_سأشتري الآلة الأخرى التي سيمكنني استخدامها وحدي، قد أخبرتني عنها قريبتنا. وهكذا لن أتعبك دائما.

اقتربت مريم من والدتها وعانقتها بقوة " أتعبيني دائما أرجوك، فهكذا أشعر بأني حية " ثم جلست بين قدميها.

قالت والدتها مستغلة صفاء اللحظة وهي تقول : الله يرضى عنك يا حبيبتي، كم أتمنى أن تلبي ما نتمناه منك أنا ووالدك.

كعادتها هي تقول : إن شاءالله .

فتعرف الأم أن الجدال غير مجد مع ابنتها، فهمهمت : الله يهديك ربي !

فتجيبها مريم وهي تقبل يدها: أجمعين.

نهضت من بين قدميها وهي تقول " سآخذ حمامي وأحضر الفطور لنا، ارتاحي أنت ".

دخلت الحمام، جربت المياه قبل أن ترمي بجسدها تحت رذاذها، وهي تتنهد بقوة مدركة هذا التناقض الذي يعتريها ما بين الحزن والسعادة في يوم واحد. تعرف أن حياتها لم تخل من المواعدة، وفي بعض الأحيان ادعت الغباء رغم ذكاء الرجال الذين واعدتهم. مجرد إمضاء بعض الوقت الطيب. لكن دائما ما تشعر بالفراغ ،فتسُارع إلى إنهاء العلاقة، لتبدأ بعلاقة أخرى، وهذا ما يزعج والدتها منها من بين أمور أخرى.

لم تختر أطباعها، وربما لم تولد بها، ولا تعرف كيف اكتسبتها، لطالما تمنت لو ولدت فتاة بسيطة، يرضيها قلب رجل بسيط، ويعيشان معا بسعادة، تقبل مطالبه ،وتنسى كلمة لا، وتصبح أكثر هدوءا وقبولا، وأقل غضبا من المجتمع ومن الذكر

،وتنجب العديد من الأطفال، ليصبح أقصى طموحها تربيتهم جيدا وأن ينالوا أعلى المراتب في دراستهم وحياتهم. لكن الواقع بأن هذه الحياة لا ترضيها، رغم أنها لا تجد فيها ضررا.

تشعر بأن عذريتها عائق ترغب في التخلص منه، ولا تريد الزواج أيضا. منذأفلام الأبيض والأسود وهم يثقلون على الفتاة بعذريتها، تكره ذلك، ولكنها لا تفعلشيئا بخصوصه ولا تعرف كيف تكسر هذا الهاجس داخلها، أو تتمرد عليه، فهي ببساطة تقبله وتخشاه. تتذكر لقاءها الأخير بحبيبها قبل عدة سنوات في بغداد ،حين أغلق الباب عليهما، شعرت بالخوف من أن يجرفهما الحب، وأن يمارسا الجنس، لذلك حين شرع في تقبيلها، لم تبادله القبلة، شعر بتصلب جسدها "ماذا هناك يا عزيزتي ، ألا تشتاقين لي؟ "

أخفضت نظراتها تبحث عن الكلمات التي تشرح ما تشعر به من خوف وترقب ،لكن الكلمات لم تطاوعها بسهولة.

_ لو تدري كم جازفت اليوم لأراكِ، لم يطعني قلبي وأنا أراك ترحلين دون أن نحظى بوداع يليق بنا.

أرادت أن تخبره أن مجازفتها أكبر في أن تأتي إليه، رغم أعين المتطفلين في الشارع، وأسئلة والديها عن سبب غيابها. لكن صوتها لم يخرج. واكتفت بالصمت.

أجابته : رأيت تلك النظرة.

كان في طريقه نحو المطبخ، توقف سائلا إياها : نظرة ؟

_ ربما سيكون غدا سفري إلى أوروبا، ولكن هذا لا يعني أني أريد أن ...

_تريدين ماذا ؟

_ أنت تعرف ما أقصد.

_ يا عزيزتي لو كنت أريد ممارسة الجنس معك لفعلت في لقاءاتنا السابقة !

علقت برأسها كلمته وهو يقول " نمارس الجنس" ولم يقل نمارس الحب، زعلت منه ولكنها خجلت أن تقول شيئا.

قالت مستنكرة : لكني لم أكن لأدعك تفعل.

ضحك وهو يقول : لم تري نفسك بين ذراعي، كان يمكنني أن آخذك بكل سهولة!

_ تأخذني؟

عاد ليجلس بجانبها ،أخذ شفتيها من جديد، وحين شعرت بيديه تلمس كل ما تجده ،ابتعدت وهي تقول: أنا...

شدها إليه وهو يقول: أفهمك دون كلمات، اطمئني لن أخذ عذريتك الليلة.

أجابته بعناد : ولا في أي ليلة أخرى.

نظر إليها مليا هامسا : أريد أن أكون الرجل الأول في حياتك، وأول من يعطيك النشوة.

ضربته على كتفه بقليل من الدلع والجدية خجلا من كلماته وهي تقول له : وقح !

_ إنه كلام الحب يا حبيبتي.

ثم استطرد قائلا : عديني إن قررت يوما أن تفعليها، أن أكون هذا الرجل.

ترددت قليلا، هل يمكنها أن تكون مع رجل دون إطار الزواج، شعرت بأنه أمرمستحيل، لذلك أجابته : لا أعتقد بأنه من الممكن أن أغير رأيي، وإن تغير؛ أعدك.

ضحك من قلبه ورأت في عينيه تلك النظرات التي تحبها، ثم غابا في بحر من الشوق والوعود.

استفاقت من ذكرياتها على صوت خربشة خفيفة في الصالة وهي تتساءل " كم يتغير الإنسان دون أن يشعر " خرجت من الحمام فوجدت والدتها قد غفت قليلا ،ووالدها قد وصل وبدأ بتحضير الفطور بخفة لكي لا يزعج والدتها.

تحب والدها جدا، وتقدر طيبته، ولكنها لا تريد لحبيبها أن يشبهه، لا تؤمن بتلك النظرية التي تقول بأن الفتاة تبحث عن شبيه والدها، وهذا لطالما أزعج والدها حين تعترف له بالأمر. فتوضح له " أنت أغلى رجل في حياتي ".

_ إذا لماذا؟

_ لا أريده أن يشبهك، لا أريد أن ينافسك أحد على محبتي.

## ســـارة

غادرت بدراجتها الهوائية لكي لا تتأخر عن عيد ميلاد صديقتها التي قررت هذا العام أن تحتفل به في حديقة دودِن التي تقع في أعلى نقطة في بروكسيل، حيث اسم محطة الباص تسمى " ارتفاع 100 متر". فضلت سارة أن تستقل المواصلات العامة ذهابا، وذلك لصعوبة الصعود بالدراجة، بما أن الطريق يبدأ صعودا سريعا حتى أعلى نقطة وهذا قد يرهقها هي التي تأتي من أقصى حدود المدينة، لكنها ستستخدم الدراجة الهوائية أثناء العودة بما أن الطريق ستكون أكثر سهولة وانحدارا، فتستمتع بالركوب وبملامسة الهواء لوجهها مما يدعها تتأمل ما حولها.

وصلت إلى الحديقة، وجدتهم مجتمعين هناك أمام مبنى الجامعة، يجلسون على العشب الأخضر، دراجاتهم الهوائية بالقرب من الشجرة التي تظللهم بظلها ،أحضر كل منهم شيئا بسيطا للمشاركة في الطعام، والكثير من البيرة بلجيكية الصنع.

ما أثار استغراب سارة، هو خلو هذا الحفل من الذكور، تعرف بأن صديقتها مثلية، ولكنها لم تعرف بأنها مقاطعة للذكور نهائيا، بدت النزهة ممتعة، والفتيات مازلن يأتين تباعا، لم تكن سارة متأكدة من ميولهن الجنسية، ولكن بدا وكأنهن يأتين على شكل أزواج ،هناك ثلاثة أزواج مثلية في هذا التجمع.

كاثرين صاحبة الحفل، مستمتعة وسعيدة بهذا اللقاء، ولم يبد وكأنها تبالي غيابحبيبتها عن هذه النزهة، تجيب صديقاتها بلامبالاة بأن عندها ورشة عمل ولمتتمكن من الحضور. بدا وكأن الأمر لا يعنيها. مما أكد إحساس سارة حين زارتهما في منزلهما سابقا، حيث تمت دعوتها إلى وجبة العشاء، لم تشعر بأن هناك حبا بينهما، بدت علاقتهما روتينية، أو مجرد قرار مناسب لكليهما، قد يكون سببه خوفهما من الوحدة أو التعود على بعضهما. ما هي سوى لحظات حتى انضمت فتاتان، بقصة شعر قصيرة جدا، والكثير من " البيرسينج ". حين اكتمل العدد، بدأ الجميع بالهتاف "عيد سعيد كاثرين" باللغة الفرنسية لغتها الأم، وباللغة الإسبانية حيث أن بعض الموجودات لهن جذور إسبانية. الهتاف كذلك باللغة العربية المحببة إلى كاثرين التي تحاول تعلمها منذ خمس سنوات والآن تتحدث القليل من الفصحى، ما أثار إعجاب سارة هو ترديد إحدى الفتيات الموجودات جملتها بالعربية بلفظ سليم وسريع، فسألتها سارة من باب الفضول " ما هي بلدك الأصلي ؟ " " أنا بلجيكية ".

فابتسمت سارة وهي تعلن عن إعجابها بحسن لفظها باللغة العربية " هل درست العربية من قبل ؟ "

فاضطرت أن تقول : "أنا والدتي عربية " بعد أن وجدت نفسها مضطرة للاعتراف بعد أن واجهتها بعض الأعين التي تعرف مسبقا بعض أصولها العربية. بدا واضحا أنها تواجه صراعا داخليا، برز من خلال ردة فعلها، وقد لاحظ الجميع هذا.

ما هي سوى ثوان حتى بدأ الجميع بالهتاف بصوت مرتفع، جميعهن ينظرن إلىنفس الاتجاه فتبعتهم سارة بعينيها دون أن تدرك سبب هذا الصياح، القادم هو رجل يأتي

على دراجته الهوائية مقتربا منهن، رفع الخوذة عن رأسه وسلم على الجميع ثم انضم إليهن بالجلسة، فسألت سارة الفتاة المجاورة لها " ما سبب هذه الضجة ؟ "

أخبرتها: " لأنه ذكر". فضحكت سارة حيث بدت جملة غريبة وقد خرجت من فم فتاة مثلية.

هكذا أصبح الرجل الوحيد في هذه الجلسة. بدأ حديثه " عيد ميلاد من ؟ "

سؤاله أضحك الجمبع لأنه لا يعرف. بدا غريبا بأن يكون رجل مثله صديقا جيدا لكل هؤلاء الفتيات حيث أن أغلبهن " مثليات ". فعادة ما نجد الرجل " المثلي " هو صديق جيد للفتيات، وهنا قلبت الآية كليا.

لم ترد أن تتأخر بالعودة إلى المنزل، لكي تضع تامر في سريره، لذلك ودعت الجميع ثم قادت دراجتها، ترتدي جاليه من النايلون لونه " أصفر مائل للخضار" مع خطوط فضية عريضة، ذلك لسلامة الشخص حين يكون الليل مسدلا ظلامه.
هبطت الطريق بسهولة والهواء يداعب شعرها القصير، تفكر بحياتها، وبابنها.

ارتمى تامر بين ذراعيها بمجرد دخولها المنزل، ق بلَّته وهي تتنهد : متعبة !

نظرت إلى ابنها : لماذا لم تنم حتى هذه اللحظة؟

_ خالتو مها سمحت لي.

قالت مها مؤكدة كلامه : اعترف لي بأنه لا يعرف كيف ينام إن لم ير وجهككآخر شيء قبل أن يغلق عينيه، إنه جيد جدا في الإقناع !

رفع ت يديها إشارة الاستسلام، فضحكت سارة وهي تخبره : وجودك في حياتي هو أجمل شيء قد يحصل لي.

ربما كانت الكلمات أكبر منه، ولكنه شعر بأن ما قالته هو شيء مميز، مما جعله يشعر بالرضا، وضع رأسه على حجرها، ثم بدأت حركته تخف قليلا، حتى سكن فشعرت به وقد غفا، فحملته إلى سريره بهدوء شديد خشية أن يستيقظ.

عادت إلى الصالة، فوجدت مها قد حضرت " ال متةً ". بدأت سارة حديثها " هل هناك أخبار جديدة ؟ "

ترقرقت الدموع في عيني مها ولكنها لم تبك كعادتها، تماسكت بصعوبة وهي تخبرها : لا شيء.

تعرف سارة جيدا صعوبة الأمر عليها، لذلك تتحاشى التحدث طويلا عن هذا الأمر، لذلك رأت أنه من الأفضل تغيير الموضوع.

_ ألا تعتقدين بأن استقرارك معنا أفضل من الانتقال إلى منزل بمفردك ؟

_ وجدت استوديو صغيرا مكونا من غرفة ومطبخ صغير في حي مولمبيك ،صاحبه مغربي، لا مشكلة لديه بأني لاجئة ،وأعتمد على مساعدة الدولة. المنزل سيكون فارغا بعد ثلاثة أشهر من الآن.

_ أخبرتك بأنه يمكنك دائما البقاء هنا. حين طلبت منك الاستقرار معنا لم يكنعرضي مؤقتا. بالطبع أحترم رغبتك في الحصول على منزل خاص بك، أنت تحبين وحدتك

جدا، وانتقالك لتعيشي بمفردك سيشعرني بالقلق عليك دائما. لا أريد أن تسحبك الوحدة كثيرا.

_ لا تقلقي، سأزورك دائما.

_ إذا لنتفق الآن. كل يوم سبت سيكون لي أنا وتامر، ولن أقبل بالتفاوض، فهذا قرار نهائي.

ضحكت مها وهي تعدها : موافقة.

استيقظت سارة على صوت تامر يلعب بجانبها، نهضت عن السرير بثقل وهي تشعر بالإرهاق بعد سهرتها مع مها حتى وقت متأخر من الليل، الساعة تقترب من الثانية عشرة، وعليها أن تكون في منزل أصدقائها بعد ساعة من الآن. مها رفضت الانضمام إليها، فلم تلح عليها أكثر، ارتدت ملابسها بسرعة بعد أن ساعدت تامر على ارتداء ملابسه. اشترت بعض المعجنات المغربية أثناء طريقها وقدمتها لبريجيت حين وصلت.

هناك العديد من العائلات، حيث لم تتوقع هذا العدد من الناس، بريجيت أخبرتها : سعيدة لتمكنك من المجيء، لم أكن متأكدة من سيحضر حتى هذه اللحظة. ضحكت مسرورة بهذا العدد.

الجميع ينتشر في الحديقة الخلفية للمنزل؛ استمتاعا بالطقس، شعر تامر بالخجل قليلا، وما هي سوى دقائق حتى اندمج مع الأطفال هناك.

رأت بعض أصدقائها هناك، وتعرفت على أنُاس جدد كذلك، بريجيت بدتمشغولة في المطبخ.

رأت صديقها الذي يعمل في أحد الجرائد المحلية " دو مورخن ". تعرفت عليه من خلال مقابلة أجراها عن معرضها الذي أقيم في مدينة بروكسيل، يتحدث مع بعض الأشخاص، فسلمت عليه و تعرفت على باقي المجموعة.

أحدهم كان يشرح موقفا طريفا حدث لأحد أصدقائه : صديقي بدأ يتحدث إلى أحد الأشخاص خلال فعالية، ولم يكن يدرك أنه يتحدث إلى الوزير. حتى اقترح الوزير اجتماعا على الغداء في اليوم التالي، فأخبره صديقي ببساطة بأنه مشغول.
مقترحا: ولماذا لا تأتي أنت؟

في لحظتها قال الوزير: أووه ، لم لا.

ثم سأله صديقي : هل أنت رجل أعمال ؟

فتدخل أحد الموجودين قائلا : الوزير ألم تسمع الخطبة في بداية الحفل ؟

فأخبرهم بصدق : قد فوتها.

الموقف كان طريفا، فابتسمت سارة والجميع بدأ بالضحك. حتى قال آخر: أتخيل بأنك قد تصبح مستشارا للملك قريبا.

فبدأ يخبرهم بأنه تقابل مع الملك فيليب عدة مرات وذلك أثناء العودة من احتفالية لمانديلا. سأله : ما رأيك بالاحتفالية ؟

_ هناك عدد كبير من الناس.

وكان لقاؤه الثاني بصحبته مجددا ذهابا إلى الصين حيث سأله : ما رأيك بالصين ؟

أخبره: إنها بلد كبير .

فعلق آخر: بالطبع نحن نعرف بأن الملك لا يمكنه أن يبدي رأيه السياسي علنا، أو يجري أي مقابلات، لذلك أجوبته كانت حيادية وعامة.

فاستطرد الآخر: لذلك توقفت ببساطة عن طرح الأسئلة.

نظر ت من حولها فوجدت ابنها وجد دراجة هوائية صغيرة بدأ يلهو بها، وعدة فتيات صغيرات على مقربة منه يلعبن بالدمى. إحدى الفتيات تحاول التحدث إليه أما هو فيسير مبتعدا ومتجاهلا. تعرف سارة أن ابنها يظن نفسه كبيرا على اللعب معهن. ثم لفت انتباهها تلك القصة التي يرويها صديقها الصحفي فأنصتت إليه جيدا: قابلتُ بوغالتش جبري من أثيوبيا لإجراء لقاء صحفي، أخبرتني بأنها منعت من التعليم منذ طفولتها بسبب والدها، لذلك قررت الذهاب إلى المدرسة، وذلك رغبة في التعلم مثل أخيها تماما. لكي تفعل ذلك اضطرت لاختراع كثير من الحجج لكي تذهب إلى المدرسة سرا. أخبرتني بأنها تعلمت الحروف الأبجدية وهي صغيرة، تعلمتها في بضع ساعات، وحين أرادت أن تكتبها أمام والدها ،شعرت بعينيه تتمنى أخاها أن يفعل ذلك وليس هي، جهدها هذا لم يكن كافيا لكي يقنعه بضرورة ذهابها إلى المدرسة، لذلك استمرت بذهابها سرا.

حفظها للإنجيل هو من فتح الباب أمامها لكي تستكمل دراستها، حيث تم استدعاؤها لمسابقة في القدس. هناك حصلت على منحة جامعية في الميكرو بولوجي ثم لاحقا

حصلت على الدكتوراه من الولايات المتحدة وثم عادت إلىأثيوبيا في عام 1990. قررت المساعدة في حماية حقوق المرأة الأثيوبية، ولذلككانت تحتاج إلى إنشاء مصداقية مع المجتمع، وبدأتها من خلال بناء جسر يسهلعلى الطلاب الذهاب إلى المدرسة والتجارة إلى السوق المحلية.

علقت سارة : هذه المرأة قصة نجاح!

سارة تؤمن بأن الحلم وحده لا يكفي، وعليها بذل مجهود قوي لكي تحقق حلما ما ،في حين هناك من تقدم له بعض الخدمات على طبق من الفضة ،أما هي تصل إلى ما تريده بكثير من الجهد، والإصرار، وما يعنيها هو التقديرالذي تحصل عليه.
حين عادا إلى المنزل، اعترف لها ابنها تامر بوقوعه في الحب، فابتسمت سارة وهي تسأله : من ؟

اعترف بأنه وقع في غرام فتاة في الثانية عشرة من عمرها، ابنة أحد الأصدقاء في الفطور المتأخر. بدأ يشيد بصوتها وجمالها، ضحكت سارة ومها ؟

_ لا تخبريها، لا أريدها أن تكون حزينة.

ابتسمت سارة وهي تؤكد له أنها ستحفظ سره جيدا، فابتسم شاعرا بالراحة.

عالم الذكور له خصوصيته، وفي سنه الصغير، لن تعجبه فتاة تقاربه بالعمر، بل يتطلع إلى فتاة أكبر، ظنا بأنه كبير كفاية كذلك .

# 5

## بيت ساحور

**لور/ بيت ساحور / 2002**

استيقظتُ في الصباح، البيت كخلية النحل، زينة تحضر الفطور لأبوعلي ووالدتها، وأولادها يرتدون ملابسهم استعدادا للذهاب إلى المدرسة. عمر لا يزال نائما في غرفته، وقد خرج الجميع، فبدا المنزل هادئا، مما جعل قلبي خاويا، أحببت خطواتهم وزحمة هذا البيت.

جلس أبو علي أمام باب المنزل على كرسيه البلاستيكي المعتاد، الذي قلما يحركه أحد من مكانه ،رغم أنه متروك في الشارع طوال الليل، فلم تتم سرقته يوما.
سيكون غريبا إن مر طلاب المدارس من الشارع دون رؤيته يجلس هناك وفي يده كوب الشاي ،يلقون عليه السلام، ممن يعرفهم ولا يعرفهم. لا يمل الرد عليهم سواء كانوا بنات ا أو أولادا سائرين في طريقهم نحو المدرسة. سيثير قلق المارة إذ تخلف عن الجلوس في موعده المعتاد، فوجوده أصبح جزءا لا يتجزأ من هيبة الشارع .

هو جزء مهم من طقوسهم الصباحية التي ارتبطت بذهابهم إلى المدرسة.
انضممتُ إليه بعدما أعددت له كوبا آخر من الشاي مع ثلاث ملاعق من السكر ،وهذا يثير استغرابي إلا أنها العادة في فلسطين.

يرتدي جلابيته البيضاء واضعا على رأسه الكوفية الفلسطينية، يحفظُ ملامحالمدينة جيدا، يعاني من أوجاع في العظام لكن ذاكرته حديدية، يتأمل المارينبروية، يسمعني بانتباه كبير ويثني على لغتي العربية الفصحى. اعتاد أن يخبرنيأني أتحدث أفضل منه، فأضحك لأن هذا ليس صحيحا. فمعرفته للعاميةواستخدامه لها جعله غير قادر على استخدام الفصحى بسهولة.

_ هل هناك أخبار جديدة ؟

فيصحح لي قائلا: قولي بدلا من ذلك " إيش أخبارك".

في الساعة السابعة صباحا بدأت الحركة في الحارة تهدأ رويدا رويدا، بعدما ذهب الطلاب إلى مدارسهم، ليعم الهدوء مجددا في الشارع، حاول أبو علي التحدث بالفصحى بعدما شعر بأنني لم أفهم جيدا ما يقوله.

_ شو صعبة هالفصحى، والله شاطرة اتعلمتيها !

جعلني أشعر بالفخر بما أنجزته. بدأ يسرد علي تاريخ بيت ساحور؛ ناسيا وجودي بجانبه، أستمع إلى حديثه، وأتأمل مشاعره الجياشة، وعينيه التي تمتلئ بالفخر وهو يحكي عنها، مما جعلني أشعر بالحنين لبلاد جدي ) إيطاليا( التي لم أعش فيها يوما.

_ نسيت أن تخبرها؛ أن بيت ساحور مشهورة منذ قديم الزمان، وقد عاش فيها إله الخصب الكنعاني " إيلي لا هاما ".

هذا ما قاله عمر وهو يخرج من باب المنزل لينضم إلينا وبيده كأس من الشاي مرتديا ملابسه استعدادا للذهاب إلى العمل. شعره الأسود ينسل على عينيه، بشرته

سمراء، وعيناه العسليتان اللتان كما يبدو ورثهما عن جده، كأنه يعرف جيدا مدىجاذبيته، ولكنه طبيعي جدا في تعامله.

فاستطرد أبو علي : عُثر على العديد من المنازل والمدافن والأثريات من العصور المختلفة كالكنعانية والبيزنطية.

تذكرتُ أني قرأت عن تاريخ المنطقة فأحببت مشاركتهم بما أعرف. قلت : "وأيضا تم العثور على أواني تعود إلى العصر البرونزي الأول )3000 - 2000 ق.م.( ".

استند على الحائط ولم يوجه سؤالا مباشرا، كنت أستمع إليهما يتحدثان ويمازحه ببعض المعلومات التي نسى سردها، والجد يحاول أن يثبت أنه لم ينس شيئا. وأنا مستمتعة بهذا الحوار اللطيف بين الجد وحفيده ،نظر إلي مباشرة وهو يسألني : هل لديك خطط صباح يوم الجمعة؟ سأخرج بصحبة مجموعة من الأصدقاء لزيارة بعض المناطق في بيت لحم، أهلا وسهلا بك إذا رغبت في الانضمام إلينا.

يعتبر يوم الجمعة في بعض الدول العربية هو الإجازة الأسبوعية، بخلاف أوروبا التي تعتبر الإجازة الأسبوعية في يومي السبت والأحد.

ابتسمتُ وأنا أخبره :أجل يسرني الانضمام.

لم أكلف نفسي عناء التذكر إن كان هناك شيء ما قد التزمت به، كنت أعرف أنني سألغي أي خطط مسبقة. وسآخذ مبادرته اللطيفة هذه بصدر رحب.

التفتُ إلى العم أبو علي، وأنا أداري خجلي من أنني بدوت متلهفة جدا للخروج معه. أشعة الشمس تزعج عينيه، لست متأكدة إن كانت نظراته مصوبة نحوي أو هذا ما أردته. لاحقا بدت الأمور بيننا أكثر تلقائية، وأقل فضولا ،هناك بعضاللحظات التي تبادلنا خلالها النظرات دون حوار. نظراته عميقة وجريئة ولايخجله النظر إليّ مباشرة. بدا وكأن جسدينا يتعارفان على طريقتهما، وهذاالانجذاب بيننا بدا قويا ويشعر به كلانا. لم أكلف نفسي عناء إخفاء ذلك، وبدأسهل تقبل هذا الانجذاب الجسدي من إنكاره في حينها، فما هي سوى بضعة أسابيع، ثم يفترق كل منا في طريقه ويعود إلى حياته السابقة.

قد نلتقي بشبيهنا الروحي، قد لا يتكلم لغتنا، لا يشبه لون بشرتنا. من هنا تأتي الإنسانية؛ تلُغى الحواجز واللغة ونوع الجنس. هناك دائما شخص ما يلهمنا.

بدأ الجد يسرد علي بعض القصص التي أثارت اهتمامي بعد خروج عمر إلى عمله.

سألته : ما قصة المطلوبين الـ 18 للإسرائيليين ؟

ضحك الجد قائلا : ثماني عشرة بقرة هددن أمن إسرائيل أثناء الانتفاضة.

لم أتأكد أنني فهمت ما قال، ولذلك سألته : ما معنى بقرة ؟

_ " الحليب من وين بيجي ؟ من البقرة

ضحكتُ وأنا أستغرب كيف يمكن لثماني عشرة بقرة من تهديد أمن إسرائيل إلى حد أن يتم مطاردتهن.

الجد : بدأت القرى الفلسطينية تعتمد على المنتوجات الذاتية لمزارعهم، وفي مقاطعة المنتوجات الإسرائيلية التي كانت تفرض علينا بسبب نقص الأخرى في السوق، بسبب سيطرتهم الاقتصادية علينا. مما دفع بعض العائلات الفلسطينية فيبيت ساحور لشراء ثماني عشرة بقرة سرا من بعض المستوطنين.

استقبلت بيت ساحور البقر برحابة صدر، واعتناء كبير.أم أنطوان لم تجد ابنها في فراشه ليلا مما أثار قلقها، خوفها كأي أم متسائلة هل يشعر ابنها بالدفء أو البرد؛ بالجوع أو العطش ،ثم يعود في الصباح رافضا البوح بمكان مبيته.

العلم الفلسطيني كان رمزا كبيرا لدولة سنحصل عليها بالمقاومة. رفضنا لمنتجاتهم، نسوة الحارة كن يتناوبن ويخطن العلم بسرية تامة خوفا من كشفهن ،حيث لا يمكن لامرأة واحدة أن تشترى القماش بألوانه الأربعة سويا. تتناوب كل امرأة لتشتري لونا واحدا، وامرأة أخرى تقوم بالخياطة، وأخرى تقوم بمراقبة الشارع من البلكونة.

رفض ت بيت ساحور دفع الضرائب، واستغنت عن المنتجات الإسرائيلية معتمدة على مزارعها وهذا ترك تأثيرا جميلا حيث بدأ الأمر ينتشر بين القرى الفلسطينية مما أثار الرعب فيهم، ودفع اسحق رابين للخروج إعلاميا مهددا استخدام القوة مع الأهالي. حاولوا اعتقال البقر. كنا قد أدركنا الأمر وقمنا بإخفائهن، هذا مثير للضحك الآن، لكنه لم يكن مضحكا في حينها حيث تم لصق منشورات تفيد بأن البقر مطلوبة للعدالة الإسرائيلية. انتشر جنودهم في الشوارع بحثا عنهم مع طيارتي هيلوكوبتر. وتمت مصادرة أثاث الأهالي الممتنعة عن دفع الضرائب للاحتلال.

ينتشر شباب الحي منذ الصباح الباكر، تاركين زجاجة الحليب أمام بيوت المنطقةبسرية تامة حتى لا يتم القبض عليهم. دائما ما كنا نجد شيئا في مزرعة البقر نسيهالمطاردون. يقيمون ليلتهم هناك بسرية تامة، ويغادرونه قبل شروق الشمس، لميرهم أحد، لطالما وجدنا من خلفهم قرآنا أو إنجيلا ينسونه تحت المخدة أو القشالذي يستخدمونه كسرير ليلا. كنا ننقلهم من مكان إلى آخر، البقر تعرف ما معنى حياة المطارد، وتعرف قسوة حياة الفلسطيني، بما أنها عاشت نفس ظروفنا.

أنطوان وزملاؤه كانوا يقومون بتوزيع الحليب ويخفون وجوههم بالكوفية الفلسطينية. حاولوا الفرار في أحد الأيام من قبل دورية إسرائيلية، لكن خروجهم سالمين بدا أمرا صعبا. مما دفع أنطوان إلى إلهائهم ،فتمت محاصرته بزاوية الشارع فقتلوه دون رحمة برصاصاتهم والجيران شهود على ذلك.

استشهد أنطوان الذي لم ينم في سريره الدافئ، مفضلا النوم على وسادة من القش في مزرعة البقر، استشهد أنطوان الذي يؤمن بفلسطين وتحريرها.

بدا الجد أبو علي متأثرا. حين تسمع حكاية فلسطينية؛ هذا يعني الكثير من الحزن. كثير من الشجاعة، والحب للحياة. بدا كأنه يروي هذه القصة كثيرا، وهذا لم يمنع تأثره الشديد وهو يتذكر أنطوان.

_ ماذا حدث للمطلوبين الثمانية عشر ؟

أبو علي : العدد بدأ يقل من فترة إلى فترة، حتى وصل لأربعة. ألقوا القبض على بعض الأفراد بغرض الضغط للتخلص من البقر، والحل الوحيد كان الذبح، ثم جاءت أوسلو.

أطبق علي حزن طوال اليوم بسبب هذه القصة، كيف يمكن لشعب احتمال كل هذالكي لا يخضع لإرادة أقوى منه، هذا يجعلك تستمد القوة منهم. بدأت الحركة في الشارع تنشط وبدا أن الحج أبو علي يحتاج إلى قيلولته. ما هي سوى دقائق قليلة وتصل زينة إلى المنزل لتبدأ بتحضير وجبة الغداء ففضلتُ البقاء في المنزل لمساعدتها ثم الخروج بصحبة المجموعة لزيارة أماكن أخرى.

الطعام الفلسطيني يحتاج إلى وقت طويل في الإعداد، والكثير من التوابل التي لا نعرفها في بلادنا.

زينة : إن حضرتِ أحد عزائمنا، ستري أننا لا نخرج من المطبخ طوال اليوم ، وما نحضره بساعات يتم أكله بدقائق قليلة.

أنظر إليها بنظرة احترام كبير وتقدير وأنا أراها لا توفر أية طاقة؛ بل تبذلها كلها، لا يمكنني تخيلها تبكي، تحضر في عقلي شامخة كالجبال، لا تهزها رياح كما كان يقول " أبو عمار" .

خرجتُ بصحبة أصدقائي إلى رام الله، وتسوقنا داخل المحلات. اشترى واحد منا " النرجيلة " بعد أن جربها في أحد المقاهي. أغلبهم مدح العائلة التي تستضيفه. شعرت بأنني الأوفر حظا بينهم. لا يوجد معهم الحج أبو علي وذاكرته الصلبة، أو زينة وشموخها، أو وسامة عمر وثقله.

في المساء حين عدت إلى المنزل وجدت زينة مشغولة في المطبخ، وباقي العائلة تلتف أمام التلفاز لمشاهدة الفيلم الكرتوني " طرزان " في نسخته الجديدة. بدا الجميع كبيرا وصغيرا مستمتعا بمشاهدة الفيلم، عمر من كان غائبا عن التجمع. انفرجت

أسارير الجميع. شعروا بالسعادة بعد النهاية السعيدة في عودة طرزانوجين إلى الأدغال بصحبة ابنهما الصغير ليعيشن في هناء أبدي.

شاركتهم بما أعرفه وأنا متعتهم في مشاهدة هذا الفيلم : حاز فيلم طرزان الذي أنتجته شركة والت ديزني على جائزة الأوسكار عام 2000 في مجال أفضل أغنية You'll Be In My Heart للمطرب فل كولنز.

علقت مي : أغنية ستبقين في قلبي، من يقصد بها الأدغال أو جين ؟

سمعتُ الجد يقول تاركا سؤال مي معلقا في الهواء : في الخمسينات تم استخدام قصة طرزان في الصراع العربي - الإسرائيلي من قبل المجتمع الإسرائيلي.

فسألت حفيدته مي : كيف يا جدي ؟

جلست لأستمع إليه فقد نجح في إثارة فضولي كعادته وهو يسرد قصصه.

أجاب : تم تحوير القصة الرئيسية ونشأت سلسلة مختلفة عن السلسلة الرئيسية.

هنا تجد الأطفال صاروا كبارا وهم ما يزالون يملكون جسد طفل لكن عقل رجل كبير، فما يعايشونه يوميا جعلهم أكثر نضجا، وتحليلا.

قال الجد بانفعال :أصبح هناك ولع من قبل مجتمعهم تجاه هذه القصص، حيث تم تصوير طرزان كبطل يصارع الزمن وفرسان القرون الوسطى. يساعد المهاجرين اليهود غير الشرعيين بدخول فلسطين أثناء الانتداب البريطاني ،وبسبب ذلك قام الإنجليز بإيداعه في السجن. في أحيان أخرى نجده يفك حصارا فرضه الجيش

المصري في السويس، ويقوم بقتل الجنود المصرية. أو يمنعمخططا نازيا مصريا يريد السيطرة على العالم.

سألته مي : هل قرأتها يا جدي؟

فأجابها : لم أقرأها. سمعت عنها الكثير ،يجيدون الاستغلال العاطفي.

_ ألم يوقفهم أحد عن نشر هذه السلسلة؟

أخبرنا : من جانب آخر صدرت في سوريا ومصر سلسلة طرزان أخرى، تختلف كذلك عن الطرزان الإسرائيلي، حيث صوروه طرزانا متعاطفا مع القضية الفلسطينية، ويحارب الصهاينة.

أظهر أحمد اهتماما مفاجئا بعد أن كان ينصت لحوارنا جيدا دون أن ينبس ببنت شفة : كيف يمكنني الحصول على هذه السلسلة يا جدي ؟

الجد لم يعرف.

سألت مي الجد عن السر وراء هذه الذاكرة. أخبرها : هذا كان حديث الناس في وقتها.

كنت أقف منبهرة بذاكرته الحديدية، وعزمه الدائم، وحبه لأحفاده الذي تراه واضحا وجليا واحترامه الكبير لزينة، كنت أسمع وهو يدعو لها بغيابها. كنت لا أفهم ما يقول وحين أسأله يشرح لي بأنه يدعو الله ، لديهم عادة في الدعاء بصوت مرتفع، وفي مرة سمعته يدعو لي، فشعرت بسلام داخلي.

أخبرني : بأن ابنه عرف أن يختار زوجة صالحة، صمدت بعد استشهاده وحملتثقلا على كتفيها لا يقدر عليه أحد.

سمعنا صوت أحمد يقول : سأبحث عبر الإنترنت، ربما أجدها !

فكرت في لحظتها بأنه لابد وأن السلسلتين من الطرفين غير قانونية، فلابد من موافقة المؤلف والناشر.

خرج أحمد من باب المنزل، وحين رأته زينة سألته " إلى أين ؟ "

أجابها : سأجلس ساعة في الكافي نت، ثم سأعود مباشرة .

_ أليس الوقت متأخرا قليلا ؟

_لا تقلقي يا زينة الحلوة.

ها هو يقلد عمر حين يريد أن يغازل والدته يناديها باسمها، وحين تحتج على ذلك ،يخبرها بأنه يشعر بالخجل من مناداتها " أمي" فهي تكاد تظهر كأخته لا أكثر. فتخجل من كلماته، أحمد يقلد أخاه وطريقته تنجح، تثق بهما وهما يشاركا في هذه الثقة.

انسحب الجد إلى غرفته، ومن ثم ساعدت زينة والدتها على الاستلقاء في غرفتها بعد أن غفت في الصالة. بدؤوا واحدا تلو الآخر في الاستئذان للذهاب إلى غرفهم. جلستُ مع زينة لبعض الوقت، ثم شعرت بمدى تعبها ومقاومتها للنوم ،فطلبت منها الذهاب للنوم.

_ لا داعي لتظل مستيقظة بسببي.

كرم الضيافة هو ما يميز هذا البلد ،بسبب حرجها لم تستأذن رغم مدى تعبها.
اختلاف كبير في الثقافة عن بلادي، ما أحببته البساطة في علاقاتهم الاجتماعية. إن أردت زيارة شخص ما يكفي أن تتصل به في لحظتها أو تمر دون اتصال فسيستقبلك بكل ترحاب بينما في بلادي يوجد أجندة ترتب مواعيدنا. أحب الحرارة في علاقاتهم وقربهم من بعضهم. استلقت زينة في غرفتها، فظللت بمفردي في المطبخ أفكر في إعداد كأس من الشاي.

كثير من الذكريات القاسية تطاردني في هذه اللحظة، وأنا أتذكر الأشهر الثلاثة التي قضيتها في مصحة نفسية قبل عدة أشهر، لو لم أجد القوة في داخلي لكنت ما أزال هناك. أدركت أن هناك عالما يعاني يوميا، أدركت أن الحياة يمكن أن تكون قاسية جدا، ورغم ما عانيته في مرحلة معينة من حياتي، كنت شجاعة كفاية لكي أخرج من هذه الحالة بأقل الخسائر.

_ بماذا تفكر الجميلة ؟ ذكريات حزينة ؟

رفعتُ رأسي، فرأيته يقف أمامي مباشرة، ونظراته تسقط على وجهي وتلك النظرة في عينيه. كنت شاردة لدرجة أنني لم أنتبه على صوت الباب الخارجي ،ولا خطوات قدميه حين دخل المطبخ.

_ أهلا عمر، هل كان يومك جيدا ؟

_ منيح منيح!

نظرت مباشرة إلى عينيه وأنا أسأله : هل تود شرب كأس من الشاي معي ؟

كنت أعرف أن الخصلات الزرقاء والزهرية بدأت تختفي من على شعري تاركةلونا يميل للبرتقالي ،بعد مواظبتي على غسل شعري يوميا. بالرغم أنه من الأفضل عدم غسلها للاحتفاظ باللون وقتا أطول. لكن صوتا داخليا كان متلهفا لتختفي هذه الألوان من شعري، رغم قناعتي التامة حين غيرت اللون في المرة الأولى .

اقترب وهو لا يزيح نظراته عني كأنه يتحداني، لم أعرف ما خطوته التالية. لم أعرف ما المقبول هنا أو غير المقبول لو اختلفت الظروف لاقتربت منه بهدوء وقبلت شفتيه، بدا وكأنه يقرأ أفكاري، فاقترب أكثر. شعرت بأنفاسه تلتصق بوجهي وهو يسألني : هل تعرفين أين تجدين الشاي ؟ أو تحتاجين إلى مساعدة ؟

احمر وجهي تأثرا وليس خجلا، وقد لاحظ ذلك، كنت متحمسة وفضولية، هل سيقبلني أو يتراجع بخطوته، بدا وكأنه سيفعل لولا صوت باب المنزل، دخل أحمد إلى غرفته بعد أن سلم ولم ينتبه إلى التوتر المنتشر في الهواء.

اقتربتُ منه ووقفت أمامه وأنا أنظر إليه، ففهم رسالتي واستجاب بترحاب ،فشعرت بشفتيه تطبق على شفتي وما لبث أن توقف ناظرا إلى عيني واحتضنني.
شعرت بالهدوء بين ذراعيه. ق بلَّتهُ على وجنته ودلفت إلى الغرفة لأنام بصحبة مي.

قلما حظينا بليال هادئة هنا منذ قدومي. منذ بداية الانتفاضة الثانية والشوارع مجنونة والخوف في عيني الأطفال تراه واضحا وترى كم يحاولون إخفاءه بثوب من الرجولة. هذه الحيلة التي تعلموها من آبائهم لكي يستمروا في العيش.

يتحايلون على خوفهم.

الإجازة المدرسية على الأبواب، وسيخف بعض الحمل من على كتفي زينة. أربعة أيام وأعود إلى بلجيكا، أشعر وكأنني سأترك شيئا مني هنا، سأشتاق إلى هذه الشوارع. صوت القذائف. إلى رائحة الزيتون. وصلابة زينة وحكايات أبو علي، وعيني عمر وشفتيه.

استيقظتُ صباحا، وأنا متشوقة لقضاء مزيد من الوقت بصحبته، اليوم هو يوم الجمعة حيث يكون يوما مزدحما، لذلك اقترح عمر الخروج في الصباح الباكر قبل استيقاظهم لكي نقضي بعض الوقت سويا قبل اللقاء مع المجموعة. تحركنا نحو مركز المدينة في الصباح الباكر ،مركز بيت ساحور يربط الشمال مثل جنين ونابلس وطولكرم وقلقيلية بالجنوب كبيت لحم وأريحا والخليل، ومن هناك يمكن استخدام المواصلات العامة للوصول إلى أي مكان في الضفة الغربية ،فضلنا البقاء في بيت ساحور لأن نقطة التجمع داخل البلدة بعد ساعتين من الآن وليس هناك وقت كاف. سرنا داخل سوق الشعب. أخبرني عمر أن المنطقة تشتهر بزراعة الفقوس وقد يوزعونه مجانا خلال احتفاليات تقام كل ستة شهور. سرنا جنبا إلى جنب ورغم أنه ليس مألوفا في الشوارع الفلسطينية أن يتبادل الناس القبل أوالأحضان، إلا أنني كنت سعيدة بإمضاء هذا الوقت بصحبته. وصلنا إلى شارع طويل يصطف على طول جانبيه مجموعة من الأشجار. يبدو الشارع لوحة فنية جميلة، ما لبثنا أن سرنا حتى سألني عمر وهو يضحك : هل تعرفين ما اسم هذا الشارع الذي أعجبك ؟

أجبته: لا أعلم، ما اسمه ؟

قال بابتسامة مكتومة : شارع اسطيح.

أعجبني الاسم، وهذا ما آثار استغرابه وهو يقول : هذا الاسم المُحدث ، لكننا في أغلب الأحيان نستبدل بعض الأمور الجميلة بأمور أكثر من عادية.

_ وما هو الاسم الأجمل ؟

شعرت بكفه يحتضن يدي بخفة شديدة، ودون أن أدرك شيئا ق بلّها وهو يقول : شارع العشاق !

_هذا جميل !

كلانا لم يحتج إلى طرح الأسئلة، كنا نستمتع بوقتنا معا، كما أني لم أشعر بالرهبة التي عادة ما تجتاح الفتاة الأوروبية تجاه شاب يأتي من مجتمع ثقافي مختلف ،ودين مختلف، في حينها كنت أقبل ما تعرضه الحياة بطيبة خاطر دون أسئلة.

انتهت اللحظة الجميلة بسرعة، تاركا يدي بنفس الخفة حين مر من جانبنا بعض الناس. مررنا من خلال منطقة عش الغراب حيث تقام احتفاليات الفقوس. شرح لي بأنها كانت منطقة عسكرية إسرائيلية حتى استلام السلطة الفلسطينية ليتم تحويلها إلى حديقة عامة.

كنت أتعرف إلى بلدته بحب، وأحفظ أقل التفاصيل التي يسردها، لابد وأنه ورث هذه الميزة عن جده، حيث يشبهه كثيرا في بعض الأحيان، وفي لحظات أخرى أجده

شخصا مختلفا كليا. لكن هذين الاثنين يعرفان كيف يحبان هذه البلد علىطريقتهما الخاصة، طريقة حديثهما عنها تجعلك تقع في حبها أيضا.

كنا قد وصلنا إلى واد أبو سعدة، حيث تشتهر هذه المنطقة بانخفاضها، مما يتسبب بكثير من المشاكل التي يعاني منها أهل المنطقة، خاصة في فصل الشتاء، حيث تتجمع المياه هناك.

_ هذا شارع الشهداء، ذلك لاستشهاد عدد من سكان المنطقة خلال أربعة أيام.

وصلنا إلى بلدية بيت ساحور من مدخلها الشمالي، وهي نقطة التجمع المتفق عليها بين الجميع. عادة ما يتجمع أهل المنطقة هنا و بعض المناطق الأخرى في عيد الفصح لاستقبال النور القادم من كنيسة القيامة في القدس بعد صلاة تدوم خمسين يوما ويسمى سبت النور.

قابلت خلال التجمع العديد من الأشخاص ولكن لم أتمكن من حفظ الأسماء جميعها لكثرة عددهم، شعرت بالسعادة حيث أغلب من تحدث معي مدح لغتي العربية.
انتظرنا ما يقارب نصف الساعة في انتظار باقي المجموعة، وحين اكتمل العدد ،بدأنا بالتحرك، متجهين نحو مطعم " الخيمة " لتناول الفطور ونبدأ جولتنا حول المنطقة.

وقعت في غرام المكان بمجرد أن وصلت ،الجو الحميمي للمكان وديكوره الخاص. طلب بعض الأشخاص النرجيلة، وكنت متحمسة لتجربتها. حين قمت بتغيير مقعدي لأكون أكثر قربا من الشخص الذي يدخن النرجيلة، حيث عرض علي مشاركته.

قبلت دعوته بترحاب وفضول لتجربة هذا الشيء. ما هي سوىدقائق حتى جلست فتاة إلى جانب عمر، وصل ت متأخرة مع زميلاتها.

كنت أراه يتحدث إلى تلك الفتاة بتلقائية ومرح، وفي بعض اللحظات تتلاقى نظراتنا، فأشعر بالشوق إليه. الفتاة تبدو معجبة به وهذا بدا واضحا من خلال نظراتها إليه، واهتمامها به. مختلف عن الشباب الآخرين الموجودين في المجموعة.

استعد الجميع للخروج من المطعم، اقترب عمر وهو يسألني : هل أعجبتك النرجيلة؟

كنت أرى تلك الفتاة تراقبنا بنظراتها، ولكني لم أفكر بالأمر طويلا، أردت أن أستمتع بالوقت.

_ أعجبتني !

_ سنأتي أنا وأنت مجددا إلى هنا.

_ فكرة رائعة، سأحب ذلك.

تحركنا من الرعاة إلى كنيسة المهد سيرا على الأقدام، نفس الطريق التي سلكها الرعاة إلى المكان الذي ولد فيه المسيح، الجميع بدا لطيفا ومستعدا للمساعدة.

الجمع لم يقتصر على أهالي بيت ساحور، بل هناك عدة أشخاص من مناطق مختلفة من الضفة الغربية. سمعت أحدهم يقول " خلال العيد في الخامس والعشرين من ديسمبر تخرج مسيرة ينظمها مركز التقارب بين الشعوب ومركزه في بيت ساحور. تنطلق المسيرة إلى كنيسة المهد من " الرعوات " كما يطلقعليها أهل المنطقة.

يوزعون المشاعل على الجمع، ويتخلل هذا الجمع شخصيات بارزة ورجال دين من الديانة الإسلامية والديانة المسيحية.

قضينا ساعة في ساحة المهد حيث تقع ما بين الكنيسة ومسجد عمر. المشهد يترك شيئا جميلا داخل النفس حيث ترى ديانتين بهذه العراقة تجتمعان بسلام في نفس الوقت. تلتقيان بصلاة بكل حب.

تحركنا عودة نحو بيت ساحور القديمة لزيارة بئر السيدة العذراء، حيث تشبه شوارعها وأبنيتها شوارع القدس، بدا الجميع تواقا لشرب المياه من هذه البئر مما أثار استغرابي.

_ لماذا هذا الاهتمام لشرب المياه من هذا البئر؟

أجابني عمر: رغم أن أغلب المتهافتين لشرب هذه المياه لا يؤمنون بهذه الأساطير. لكننا نفعلها على سبيل العادة، أو لوجود ذلك الأمل الخفي في أن تتحقق أمنياتنا، وبعضنا ليزداد قداسة وطهارة.

_ ما هي هذه الأساطير ؟

_ المياه عالجت الكثير من الأمراض. وعادة في شهر أغسطس يقوم الناس بدورة السيدة العذراء.

_ ما هي دورة السيدة العذراء؟

_ هي بعض الطقوس المسيحية حيث إن هذا تاريخ انتقال السيدة العذراء إلىالسماء، فأصبح تقليدا سنويا حيث يقومون بزيارة الكنائس الثلاثة وإشعال الشموع و بالطبع زيارة البئر هنا.

_ هل هناك ثلاث كنائس؟

_ أجل سنقوم بزيارتها جميعا اليوم. كنيسة الآباء والأجداد التابعة للأرثوذكس وكنيسة السيدة فاطمة التابعة للاتين بجانب بلدية بيت ساحور حيث كان التجمع ،وكنيسة سيدة البشارة التابعة للكاثوليك. .

_ لماذا لم نزرها منذ البداية ؟

_ المجموعة فضلت أن نذهب إلى بيت لحم أولا لنقوم بزيارة كنيسة المهد و نعود إلى بيت ساحور وزيارة الأماكن التاريخية والدينية هناك.

_ولماذا سميت الكنائس باسم سيدة البشارة والسيدة فاطمة؟

_ إنها أسماء أخرى للسيدة العذراء.

بدأت الزحمة تخف قليلا من حول البئر، فتقدمنا للشرب من المياه، وما أن فعلنا حتى انشغل عمر مع بعض الأصدقاء، وأنا كنت أتأمل المكان من حولي، حتى سمعت بعض الفتيات يتحدثن.

_ شبابنا تستشهد يوميا ،وتأتي أوروبية لتصطاد واحدا من أفضل الشباب هنا!

ابتعدت عنهما؛ إذ أنني لم أفهم ما معنى كلمة "تصطاد" بالعربية فقررت أن أسأل زينة لاحقا.

# 6

# الحيـاة

## ســـارة

الطقس هو واحد من الأمور التي لا يكن الوثوق بها في معظم دول أوروبا. بعد أسبوع بارد من نهاية شهر يونيو، تطل الشمس على جميع أنحاء البارك، فقد يتبدل الطقس من ساعة إلى أخرى. من بارد إلى مشمس أو ممطر. عادة ما يحمل الناس معطفا صيفيا احتياطيا، ليتم استخدامه عند الحاجة. في هذه اللحظة يتجمع الناس أمام الخيمة الغنائية. يقام المهرجان بشكل دوري في مناسبة الاستقلال البلجيكي، بالحديقة المحيطة ب " الأ ت مُ يمُ " الذي يعد أحد معالم بروكسيل الجاذبة للسياح. كل ساعة وصلة جديدة لفرقة غنائية مختلفة من جميع أنحاء العالم.

الموسيقى تصدح في المكان ،تتمايل الناس مع الصوت بتناغم شديد، هي بين الحشد الأمامي بصحبة زميلها، ترى تلك الفتاة الشقراء تقُبل حبيبها، وتعود للتمايل، أو هذين الزوجين اللذين يجلسان على الأرض مستخدمين غطاء منزليا قديما للجلوس عليه بعيدا عن الحشد قليلا، بصحبة ابنتهما الصغيرة التي لم تتم السبعة أشهر ،والدها يناديها باسم " أليس". شقراء وعيناها تبدوان ملونتين من هذه المسافة، تجلس بجانب والديها بهدوء شديد، تستمتع بالشمس بصمت.

سمع ت سارة زميلها يسألها " هل يعجبك الحفل ؟ "

أجابته مبتهجة، وتأثير الموسيقى قوي عليها: "أجل، وجدا ".

ثم انخرطت في حديث ممل وطويل مع زميلها، لكنها لم تكن تستمع إليه في حقيقةالأمر. كانت تراقب من حولها، فلفتها ذلك الشاب الذي يقف خلفها مباشرة وقد رأته يلوح بيده لشخص ما، بعدما سمعته وهو يتحدث عبر الهاتف شارحا أين يقف بالضبط. اقترب صديقه بعد لحظات قليلة، يشبه إلها إغريقيا، حيث بدت ملامحه منحوتة بدقة عالية، مع بشرة سمراء لامعة، وعينين حادتين. خجلت حين تلاقت نظراتها معه، فالتفتت مستطردة حديثها مع زميلها. بدأ يشرح لها شيئا متفرعا إلى أمور كثيرة وقد نسى الموضوع الرئيسي، مما جعلها تفقد تركيزها واهتمامها بالموضوع الأساسي وتركز مع الموسيقى.

رغم اعترافها بأهمية المعلومات التي يطرحها أحيانا، لكن طريقة عرضه مملة وفيها استعراض لعضلاته، متباهيا بما لديه، لذلك لم تتأثر البتة بثقافته الواسعة ،لأنه يشعرها بالضجر.

نظرت مجددا نحو الزوجين وهما لا يزالان يجلسان في مكانهما و"أليس" توزع ابتساماتها على من حولها. والدها مستمتع بالموسيقى، دفعه الحماس لوضع "أليس" على رقبته، بدا الاثنان سعيدين ومبتهجين، أليس تعبر عن فرحها من خلال حركات يدها محاولة الرقص. أما الحبيبان فقد اختفيا من المكان، وقد يكونان قد غادرا المهرجان أو انتقلا إلى خيمة غنائية أخرى.

تتظاهر بأنها تسمع ما يقوله زميلها. الحلقة الموسيقية انتهت مع تصفير وهتاف من الجمع الموجود أمام الخيمة، ما هي سوى لحظات حتى غادر الموسيقيون المنصة،

وبدأ التجهيز للوصلة التي تليها، حيث بدأ الناس في المغادرة ملقين نظرة على الجدول الزمني للفرق الموسيقية.

ابنها يلعب مع الأطفال الآخرين المنتشرين حول المكان، يلعبون غير مهتمين بالموسيقى، بدا الجميع سعداء، ولكنه مجرد انطباع قد يتركه هذا المشهد، وقد تكون حقيقة الأمر مختلفة كليا ،وأن هؤلاء لديهم ما يشغلهم.

سارة مازالت تقف بجوار زميلها. ربما يظن من يراهما كحبيبين قديمين، لا يعرفان كيف يستمتعان بوقتهما. تراقب الفرقة وهي تضع آلاتها الموسيقية، تبحث عن شخص ما في وجوه الحاضرين.

رأته يعزف مرة واحدة على الجيتار، أعجبها لكنها لا تعرف أي معلومات عنه ،اسمه مثلا أو حسابه الفيس بوك، كل ما تعرفه أنه منذ تلك الحفلة وهو عالق في رأسها، لا يخرج منه أبدا. وها هي تبحث عنه في وجوه المارة، في وجوه الأطفال، في وجوه العازفين.

حدث وتعلقت ببعض الأشخاص ولكن ما يلبث وأن يختفي الإعجاب سريعا، لا تعرف لماذا هذا العازف الغريب عالق في ذهنها منذ العام الماضي. ما السبب وراء هذا الانجذاب القوي.

استأذنت منه لتشتري " مُ ثلجة " لتامر ،ووسط الزحمة لم تجد زميلها ولم تعرف كيف تتصل به وقد فرغت بطارية الهاتف، فجلست على الأرض وبجانبها تامر ،الكاميرا معلقة على رأسها، وحين انتهى من أكلها. نهضت وهي ترفع الكاميرا استعدادا، فسمعت ابنها يطلب منها التقاط بعض الصور لها. وقفت أمامه وشوق

الأم يعتريها بأن تأكله بالقبُل، تنظر إليه بحب وهي تفكر، كيف كانت ستكون حياتها بدونه. ما لبثت وأن ع نّفت نفسها على هذا التفكير، أحيانا تجدها تعترف بعدم ندمها على تجربة الزواج وقد أثمرت بهذا الكائن الجميل، وقدخرجت منها أقوى. مشغولة بأفكارها وابنها يلتقط لها الصور.

أمضت بعض الوقت مع ابنها، يلعبان سويا داخل الحديقة، ولما شعرت بابنها مرهقا، سألته : هل تريد العودة إلى المنزل؟

نظر إليها وهو يسألها : مُثلجة مرة أخرى ؟

ضحكت سارة وهي تلبي طلبه بحب، اليوم لا يمكنها رفض طلباته.

حين عادا إلى المنزل، لم تكن مها موجودة، قلقت لغيابها عن المنزل ،في نفس الوقت أسعدها أنها لم تظل حبيسة غرفتها في نهاية الأسبوع والجو مشمس ومشجع على الخروج. بمجرد دخولهما سارع تامر إلى دخول غرفتها وحين لم يجدها سأل والدته : أين ذهبت مها ؟

_ خرجت كما خرجنا نحن .

_لكنها لا تغادر غرفتها.

الأطفال عادة ما يلاحظون التفاصيل الدقيقة التي قد لا يراها الكبار بوضوح. تامر طفل ذكي ويرى حزن مها بوضوح، لذلك يتعامل معها بطريقته الخاصة التي يخصها بها دون صديقات والدته الأخريات.

يسألون سارة دائما كيف هي حياة الأم العزباء في بلاد الشرق.

تجيبهم : حياة الأم العزباء في الشرق الأوسط ليست شيئا سهلا ،أوروبا لم تلغ هذه الصعوبة ،أتعرض للحيل من قبل بعض الرجال.

في البداية كانت مجرد الفكرة تزعجها بأن هناك من يراها كائنا ضعيفا بلا سند ،ويتنافسون على قطعة منها، لكنها اعتادت هذه النظرات وعرفت بأنه أمر واقع بالنسبة لبعض الرجال الشرقيين وعليها تقبله لكي تشعر بالراحة.

_ربما هذا الرجل الطامع إنسانا جيدا لكنه نشأ مع أن المرأة هي كائنة أقل منه ،وأنها قد خلقت لتسره؛ لذلك بدأت أد عّي الغباء أمامهم. أصبحت أكثر حذرا.

لم تعد تخجل في التعبيرعن الحقيقة.

بعد طلاقها مباشرة، وجدت شقة صغيرة مكونة من غرفتين، ثم انطلقت منذ تلك اللحظة نحو العالم الخارجي الذي مُنعت منه. ثم بدأت تتعامل على طبيعتها وتتعرف على أصدقاء جدد، ولكنها تعلمت الدرس بالطريقة الصعبة ،تلقائيتها فهُمت بطريقة خاطئة من قبل بعض الرجال العرب سواء المتزوج أو الأعزب.

عرفت أن عليها أن تكون أكثر حذرا ،وأنهم لا يستحقون صداقتها وهم ينظرون إليها بهذه الطريقة. منهم من يجاهر برأيه وآخر يخفيه متغنيا بتحرر المرأة ولكنه فعليا يطمع في حريرتها. سرعان ما فهمت اللعبة وعرفت كيف تتقنها. فابتسامتها اللطيفة لا تعني أنها ق بلت أن يأخذها إلى سريره، وإن ردت التحية عليه فهذا لا يعني أنه نجح في فتنتها " تطبيقها ".

على ناصية البيت، هناك ذلك المقهى الذي لا يدخله غير المسنين، يجلسون بهدوء ويلعبون الطاولة وألعابا أخرى لا تعرفها، يسهرون طويلا. تقف خلف الباب تراقبهم وهم يلقون عليها التحية وهي الغريبة التى رأوها لمرة واحدة تجلس هناك.
فأصبح إلقاء التحية عادة يومية.

تمر الآن من أمام الباب الزجاجي العريض مسرعة الخطى غير منتبهة إلى تلكالوجوه التي تنظر إليها باستفهام، وحين وصلت إلى محطة الباص سارحة الفكرلدرجة بأنها لم تلق عليهم تحيتها المعتادة.

ذهبت إلى المدرسة كعادتها لاصطحاب تامر، اتفقت مع شروق أن تلتقيا خلال ورشة نقاش عن القضية الفلسطينية، لكنها غيرت رأيها، مفضلة المكوث داخل البيت والاسترخاء أمام التلفاز، ومساعدة تامر على كتابة فروضه المدرسية.

انتبه تامر إلى شرود والدته : ماما، سنجلس في المنزل طوال اليوم؟

نظرت إليه وهي تتساءل : ماذا؟

_ إذن سنقضيه داخل البيت !

_ هل تريد الخروج ؟ أنا أشعر بالتعب الشديد و ...

قاطعها : لكنك تقولين هذا كلما شعرت بالحزن.

نظرت إليه وهي تحاول أن تفكر بشيء مقنع لتقوله ،ثم غيرت رأيها. مدركة كم هو حساس . مما يصعب عليها الكذب أحيانا.

_ يوم كئيب بسبب هذا الجو البارد.

لم تكذب، فالجو البارد دائما ما يترك أثرا سلبيا على مزاجها، ويجعلها حزينة في أكثر الأحيان دون مبرر واضح، بدأ يفكر وهو ينظر إليها بدقة لعله يجد شيئا ما.

_ لنشاهد فيلما معا !

_ الدراسة أولا ولاحقا مشاهدة الفيلم.

_ موافق!

_ أنت رجلي الوحيد !

تلهى بالنظر نحو الخارج عبر النافذة ،أمه تجلس بجانبه وشعور بالوحدة يقتلها. مفكرة : " حاجتنا إلى الحب، تجعلنا ضعاف النفس، وبالرغم من أنه ليس هناك حب واحد مدى الحياة، لكن الكثير منا يؤمن بهذه الفكرة الخيالية، وكلما تقبلنا هذا الأمر الواقع ستصبح حياتنا أسهل ". رغم هذه الأفكار التي تتوارد إلى ذهنها لكنها لم تشعر بالراحة.

منذ خمس سنوات لم تشعر بالحب تجاه رجل، الرجل الوحيد الذي أعجبها وشعرت بالفضول الشديد نحوه ،لم تلتقه إلا من خلال بعض الاحتفالات الموسيقية بعد أن تمكنت من معرفة اسمه من خلال بعض التحريات الصغيرة التي قامت بها. يعزف على المنصة وهي بين الجموع تنظر إليه ملتقطة الصور له، ثم لاحقا استخدمت صورته في معرضها، وقد أثارت إعجاب الكثير. البعض ذهب إلى القول أن الصورة عاطفية جدا. اعتبروه ذكاء فنان في أن يحمل كل هذا الحب والشغف نحو شخص غريب كليا عنه. آخرون ظنوهما بعلاقة غرامية.

الصورة تعبق في ذاكرتها وهو يقف على المسرح يعزف مع فرقته، يقف على الجانب الأيمن من المنصة مرتديا نظارته الطبية مما جعل الأمر يبدو شاذا. شعره الأشقر القصير يلمع مع تلك الإضاءات التي تسقط من السقف؛ معلقا الجيتار على كتفه، مندمجا في العزف وعيناه مغمضتان ورأسه مرتفع قليلا إلى الجهة اليمنى. هو لا يعرف أن هناك فتاة مجنونة استخدمت صورته في افتتتاح معرضها.راودتها بعض الأفكار في أن ترسل إليه الصورة الفوتغرافية. لكنها لم تتجرأ علىفعل ذلك، رغم أن هذا الإعجاب قد بدأ منذ ما يقارب السنة، إلا أنها في البداية لمتحمل الجرأة بإرسال الصورة إليه، حتى رأته مجددا منذ شهرين، فعاد هذا الإعجاب إليها بعدما نسيته، كبر الفضول داخل صدرها، كيف ستكون قبلته ؟ كيف ستكون رقصتهما سويا ؟ هل يمكن أن يجمعهما حب، أو صداقة ؟ هل يمكنه أن يحتويها بصدقه ورجولته ؟

رغم أنها تدرك أن حالتها بعيدة جدا عن الرضا، لكنها تؤمن بأن الأرواح تتقابل. تمد المقابل بالسعادة، رغم أنها لا توفر الرضا. وهي عطشى جدا.

بعد عملية إقناع من صديقاتها قررت استخدام تطبيق التعارف " تندر". وصلها إشعار بأنه قد تم التحميل، نظرت إلى الصورة الأولى التي ظهرت على التطبيق متأملة تفاصيل الصورة، بحثت عن بعض التفاصيل فوجدت بعض الكلمات القليلة المكتوبة في بروفايل شخص ما يدعي نفسه مايك. محب للرياضة والأفلام والمغامرات الجنسية الجديدة. عادت إلى الصورة ونظرت مليا بتفاصيلها بعد أن قرأت كلماته، فلم تجد التشابه بين البروفايل الخاص به والكلمات. سحبت الصورة

نحو اليسار، فظهرت رسالة على الشاشة للتأكيد. " غير مهتم ؟ ". فأجابت " نعم ". ومن ثم بدأت تتصفح الصور الأخرى، وتسحب الصور نحو اليسار غير مهتمة، لفتتها صورة توحي بأن من التقطها له نظرة فنية، قرأت الكلمات الموجودة أسفل الصورة " القراءة والسفر والتعرف على اختلاف الثقافات".

فسحبت الصورة نحو اليمين بكل ثقة، فظهر إشعار " هل أنت مهتم ؟ " فضغطت نعم للتأكيد. فأخبرها التطبيق بأن هناك تطابقا، وهذا يعني بأن هذا الشخص قدأعجب بالبروفايل الخاص بها مسبقا، وهكذا تم التطابق حيث يمكنهما البدءبالمحادثة. فضلت انتظار مبادرته. استكملت عملية البحث متأملة الصور منجديد، هناك من يعرض صورا جنسية إيحائية تعبر عن ميوله نحو السادية ،وأزواج آخرون يعرضون ميولهم نحو علاقة مفتوحة، وهناك من يريد علاقة ثلاثية. جذبتها صورة وحين قرأت الكلمات أسفل الصورة شعرت بخيبة الأمل ،حيث مكتوب " أنا في علاقة مستقرة منذ أربع سنوات وسعيد، ولكن أبحث عن علاقة سرية من أجل المتعة ". فسحبت نحو اليسار غير مهتمة. وضعت الهاتف جانبا. سمعت صوت تامر مناديا. ناولته كأسا من الماء، ثم عاد إلى النوم. حين التقطت هاتفها وصلها إشعار بوصول رسالة عبر هذا التطبيق. فتحت الرسالة " هاي ". عادت إلى تصفح الصور، تستمتع بقراءة الكلمات التي يكتبها بعض الأشخاص، أو الصور التي يشاركونها عبر التطبيق، فجأة ظهرت صورة جعلتها تشعر بالتخبط، هو نفسه يضع صورة مع جيتاره، صورة غير واضحة ولكنها متأكدة أنه هو نفسه. بحثت عن الكلمات التي تصفه، فلم تجد كلمة واحدة تعبر عنه في البروفايل. شعرت بالخيبة. ترددت في سحب صورته نحو اليمين وتضع نفسها أمام الصدفة منتظرة

أن يبادلها هذا الإعجاب من خلال إعجابه في صفحتها كذلك ليتمكنا من التحدث. أو يمكنها أن تختار " النجمة " وهذا يعني بأنه سيستلم إشعارا أن هناك إعجابا متميزا وصله عبر الصفحة، ترددت بحيث لا تريد أن تتسرع. وأخيرا قررت أن تضع إعجابا نحو الصورة دون التمييز حتى لا تظهر لهفتها الفاضحة. وانتظرت أن يصلها تطابق .

هذا التطبيق لا يخبر الأشخاص عمن أعجب بهم، هناك طريقتان للمعرفة، وهوأن تضع إعجابا متميزا ،وهذا يعُد تصرفا متطرفا قليلا، أو تنتظر من الشخص أنيبادلك الإعجاب ليتم فتح صفحة الدردشة. إذا لم يحصل إعجاب من الطرفالمقابل، فلن يتمكنا من التحدث. نظرت نحو الشاشة بعد أن سحبت صورته نحو اليمين إعجابا متأملة أن يكون قد أعجب هو الآخر بصورتها لكن لم يحدث أي تطابق بينهما بعد. ما عليها إلا أن تنتظر. هذا جعلها تشعر بالندم فقد كان يمكنها أن تضع له إعجابا متميزا وبهذه الطريقة تضمن أن يرى بروفايلها ويعجب به كذلك، حتى وإن بدا تصرفا متطرفا.

في الصباح وجدت تامر يشاهد التلفاز، اقتربت منه وهي تضحك : تشاهد التلفاز الآن ؟ لماذا لم توقظني ؟

_ يمكنك أن تنامي قليلا، الوقت مازال مبكرا

نظرت سارة نحو الساعة مجددا، ثم توجهت بسرعة نحو الحمام لتغسل وجهها وهي تهتف : بل متأخرون !

خلال العشر دقائق تمكنت من أن تجهز نفسها ثم اتجهوا نحو المدرسة، بعدما اطمأنت من دخوله الفصل، قررت الذهاب في جولة حول المدينة مع كاميرتها.

منذ فترة لم تلتق مع الفتيات، يبدو وكأن كل واحدة منهن لديها ما يشغلها هذه الفترة. لكنها قلقة على سعاد، يبدو أنها غير سعيدة، تبذل مجهودها عبثا، تحاول أن تعيد الحياه لجسد ميت. كل من حولها يدرك ذلك جيدا ما عداها.

قررت السير في المدينة؛ ملتقطة بعض الصور. وصلت إلى محطة القطار الرئيسية لمدينة بروكسيل، رأت بعض الناس يتجمهرون أمام باب المحطة ،حاملين الأعلام الفلسطينية، والبعض يهتف مناصرة لأهل غزة، والقضية الفلسطينية وحقوق الإنسان. انضمت إلى الجمع، التقطت عددا من الصور، التفتت للخلف وهي تسمع شخصا ما ينادي اسمها.

_ سارة ! عاش من شافك !

التفتت جانبا فرأت شروق تقترب منها، قبلتها الأخيرة على وجنتها كما هي العادة في بلجيكا في إعطاء قبلة يتيمة . ثم نظرت إلى المرأة المحجبة بجانبها، مدت يدها للسلام قائلة : مرحبا، سارة.

ابتسمت المرأة المحجبة : أهلا سارة، أنا لور .

## سـعـاد

قررت أن تقوم بزيارة ابنة خالتها في فرنسا لعدة أيام، بعيدا عن بروكسيل وعملها والمشاكل التي بدأت تظهر من العدم. تحتاج أن تكون بمفردها؛ لكي تفكر بعيدا عن الضغط.

اتصل بهاتف ابنة خالتها ليتأكد من وصولها سالمة.

_ هل وصلت سعاد إلى منزلك ؟

_أجل.

_هل هي بخير؟

_ أجل ،وأنت أين أراضيك؟

_ لدي انشغالات كثيرة، ربما نزورك معا في وقت لاحق.

_ تمام.

بمجرد أن سمعتها تجيبه ،نهضت عن المقعد متجهة نحو المطبخ الصغير. لم يكن صعبا سماع صوتها، فالبيوت عادة ما تكون صغيرة ويسهل سماع الصوت وخطوات القدم، ومقابل ذلك يتم دفع مبالغ كبيرة ثمنا للإيجار وهي بالفعل مجرد علب كرتون صغيرة. قريبتها تعيش بمفردها، فهذا الاستديو يكفيها. في السابق كانت تحجز غرفة في الفندق بصحبة صديقها. سمعت خطوات قدميها تقترب منخلفها، فالتفتت صوبها فرأت سؤالا على وجه قريبتها.

فسألتها سعاد بحيادية : هناك شيء تريدين أن تقوليه؟

_ لست أعرف كيف أسأل

_لماذا هاتفني؟ ولم يتصل على هاتفك؟

_ هاتفي مغلق.

_ أوك

التفتت نحو الحوض وبدأت بغسل الأطباق المتسخة، ثم سألتها بهدوء : ماذا سنأكل اليوم ؟

_ نحن متخاصمان. قالتها قبل أن تفقد شجاعتها.

_فهمت.

قالت سعاد: لكنني لا أفهم.

_ هذا أمر طبيعي، كل علاقة تمر بهذه المنحدرات الصعبة، لكنكما ستتخطيانها بسهولة.

ضحكت سعاد وهي تتساءل داخلها : هل هذا صحيح؟

تجاهلت ذلك الصوت الداخلي ثم أجابتها : ربما معك حق، لنأكل الكُسكُس! هذا الصوت الداخلي بدأ يخبرها بأنه اتصل ليتأكد فقط من وجودها هنا، والسبب وراء هذا الاتصال ليس قلقه وإنما الشك الذي يعربد في صدره.

بدأت تتمتم : لا ليس الشك !

_ هل قلتِ شيئا؟

رفعت سعاد رأسها وهي تجيبها : لا.

_ أنت حائرة، لكي تتخطي هذه المرحلة عليك أن تركزي على ذكرياتكما الجميلة، فهي ستساعدك على الغفران.

ليست متأكدة أن كل الذنوب يمكن غفرانها، ما تعرفه أنها خجلة البوح لقريبتها سبب هذا الخصام. تشعر بالخيبة والشك حول ما تمر به. ربما لأنها ليست قادرة على هجره، وتخشى أن يموت هذا الغضب داخلها سريعا، وتجد نفسها تسامح أخطاءه مجددا، لا تريد أن ينظر إليها أحد وكأنها كائن ضعيف، فهي ليست كذلك.

هتفت سعاد : أنا سأطبخ .

_جيد .

ما تحبه في قريبتها أنها هادئة، وأسئلتها تنتهي بسرعة وبسهولة، تعرف كيف تغير موضوعا بيسر حتى لا تتعكر الأجواء. تجدها حين تحتاج لمن يستمع إليها ،إن لم تعترف سعاد بالخصام الذي وقع بينها وبين صديقها، فلم تكن لتصرعلى معرفة الأمر بل ستحترم صمتها، وستقبله برحابة صدر، فهي لا تلح، وفي بعض الأحيان هذا ما يزعج سعاد التي تحتاج لمن يدفعها للاعتراف، فليس من السهلعليها التحدث عن حياتها الخاصة.

في مساء ذلك اليوم بعد لقائها بسارة، كان قد وصل قبلها إلى المنزل، نظرت إليه بتمعن، تريد التعرف إليه من جديد. لا تجرؤ أن تسأله " هل أنت من هاتف مها ؟ " لكنها لا تسأل. لا تعرف كيف تسُكت هذا الصوت في داخلها. شعر بأن هناك أمرا غير اعتيادي، لكنه لم يسأل شيئا، بل اكتفى بسؤالها : هل كان يومك متعبا ؟

_كان يوما محملا بكثير من المفاجآت.

_ أي نوع من المفاجآت؟

صمتت وهي تراقب حركة جسده يبدل ملابسه ببطء، يخرج من الغرفة إلى الصالة، تلاحقه بعينيها، وحين اختفى عن ناظريها خرجت من الغرفة ووقفت أمام الباب تراقبه.

التفت إليها وقد تحير من نظراتها الثاقبة : هل هناك شيء ما ملتصق بشعر رأسي؟

هزت رأسها إشارة النفي، بدأت تتابعه بعينيها بينما هو يدخل المطبخ، مبتعدا عن مرمى البصر. وقفت على بعد خطوات منه، تحاول كشف الستار عن ذلك الرجل الشكاك في داخله، متسائلة : " أين يخبئ هذه الغيرة ؟ كيف يمكن أن يكون بهذا

الهدوء وهذا الجمال في حين أنه يحمل هذا القبح داخله ؟ كيف يحتضنني مساء وفي الصباح يراسل الأصدقاء ليتأكد بأني لا أكذب. كيف يمكن لهذا الكائن الجميل الذي وقعت في حبه؛ أن يغضب وهو في حالة هدوء دائم، كيف ليده التيتشاركني الطبخ أن ترتفع لتسقط على ذراعي بثقل وقوة لتضربها ؟ ".

هذا التناقض الذي تراه يكاد يقتلها، ولا تفهمه، كأنه يتبدل بلمحة البصر. رغم أنه يحتفظ بنفس هيئته السابقة. نفس الهدوء والجاذبية. بدأت تلك الفكرة تدخل رأسها من اللامكان " ربما لم أبذل مجهودا كافيا لأجعله يثق بي، ربما لم أهتم به كفاية ،ولم أعطه الحب كاملا".

قاطع أفكارها وهو يقول: سأجهز العشاء.

_ وأنا سأقوم بتحضير المائدة.

قبل عام من الآن، كانت في طريقها للاحتفال بليلة الكريسماس مع الأصدقاء ومع صديقها التونسي الأسمر الوسيم. في يدها هدية مغلفة بالورق الملون ورسالة قصيرة بخط اليد. تسير على أجنحة من الحب، الهواء يعصف بها، وقلبها يرتجف، تبخرت سعادتها في لحظة وهي ترى تلك المرأة العجوز تجلس على الأرض قرب المطعم، لا يغطيها من البرد سوى التدفئة التي تنبعث من هناك ،المطعم على وشك الإغلاق ،العجوز تبحث حولها عن وسيلة أخرى لتبث الدفء في جسدها. تقدمت منها ووضعت الهدية بين قدميها متمنية لها " كريسماس سعيد". ثم تابعت طريقها محتفظة بالرسالة.

لاحقا اكتفت بالرسالة التي كتبتها، ثم قضيا مساء جميلا ؛ سامحها لأنها منحت هديته لامرأة غريبة تسكن الشارع. ثم مارسا الحب.

تجلس في مكتبها، بالها منشغل حيث لا يمكنها التركيز على الأوراق الموضوعةأمامها، تختلط أفكار الحب بالخوف، تساؤلات لا تعرف لها أجوبة. كيف يمكن للحياة أن تغير وجهها بهذه الصورة.

عادت الأمور بينهما إلى مجاريها بعد زيارة قريبتها الباريسية. البعد القصير أشعل الشوق والمسامحة في قلبها. رغم رفضها لمبادرته الأولى في التصالح، إلا أنه استمر في إرسال الورود إلى مكتبها، وكذلك الشوكلاة التي تحبها، رأت الغيرة في أعين المقابلين ،خدعتهم الصورة الخارجية. رغم إدراكها للأمر. هذا لم يمنع تأثرها، ثم قبلت اعتذاره، ليعودا مجددا.

قبلت دعوة زملائها للخروج بما أنه يوم الجمعة والمكان ليس بعيدا من المكتب ،غادرتهم مبكرة عائدة إلى المنزل. وقفت أمام باب الشقة تفكر ماذا يمكنها أن تقول له بسبب تأخرها. لا تريد أن تزعج حبيبها بخروجها مع زملائها الذكور. أخرجت المفاتيح أخيرا بعدما استغرقت وقتا قليلا في البحث داخل الحقيبة، ما هي إلا لحظات حتى فتُح الباب قبل أن تضع المفتاح.

رأت تلك النظرة في عينيه، والتساؤل.

تغاضت عن وجهه واقتربت منه مقبلة وجنتيه ثم دلفت إلى الداخل بسرعة وقد اختلطت مشاعرها بالخوف والترقب في آن واحد، هل تخبره بأنها خرجت بصحبة زملائها.

_ تأخرتِ !

_ أزمة مواصلات !

دخلت المطبخ.

تناولا العشاء سويا، لكنها لم تكن تشعر بالسعادة، ظل هذا الشعور بالحزن يتسرب إلى داخلها. هي تتساءل لماذا كذبت. رغم أنه لا ضرر في خروجها. كيف بدأت الأمور تنفلت من بين يديها. هي بدأت تتلاشى المشاكل بينهما من خلال تغاضيها عن ذكر بعض التفاصيل التي تعرف أنها قد تزعجه وبسبب ذلك كذبت عليه.

وقفت أمام المرآة تسرح شعرها، هو ينظر إليها مراقبا، أما هي تنظر إلى انعكاس صورتها ولا يعجبها ما تراه.

تهمس : " هذه الفتاة لا تشبهني ! "

فيلتفت إلى صوتها سائلا : هل تتحدثين مع نفسك يا حبيبة ؟

عانقها. بدأ بمداعبتها، فتعللت بالتعب وخرجت إلى الصالة لتشاهد التلفاز. لم تشعر بالراحة وهي تكتشف أنها بدأت تتغير إلى شيء لا تحبه.

غفت على مقعدها أثناء مشاهدة التلفاز، بدأت تشعر بالألم في عنقها، تحركت محاولة أن تجد موضعا مريحا لرأسها، رأته بعينيها الناعستين مستخدما كمبيوترها المحمول. لم تعط للأمر أهمية وغطت بالنوم مجددا.

كانت تسمع صوته في حلمها يصرخ منددا ومهددا، ناعتا إياها بالكاذبة، أرادت الاستيقاظ من هذا الحلم المزعج، لكن النعاس كان قويا بشكل كبير بحيث لم تقو

على فتح عينيها ،ثم شعرت بيد قوية تدفعها، قفزت من سباتها بخوف وبعينين كالقطة تنظر حولها بدهشة وكأنها تحاول أن تتعرف على المكان أولا. ثم رأته يقف أمامها منتصبا، صارخا ومهددا وكأن الحلم تحقق! أو كانت ببساطة تهربمنه بالحلم.

_ كيف تكذبين علي !

أشار نحو الحاسوب، رأت أنه قد استخدم حسابها الفيس بوك أثناء غفوتها، حيث أن أحد زملائها قد شاركها بصورة جماعية من لقائهم.

لم تكن تشعر بالصحو كليا، لكنها رغم ذلك أدركت أن كذبتها فضُحت. أرادت أن تتجنب المشاكل، لكن ما حدث هو أنها جلبت المزيد منها فوق رأسها. تبدو ككاذبة أيضا رغم أن كل ما أرادته هو أن تتجنب المزيد من المشاحنات بينهما. كلما حاولت أن ترقع الفجوات التي تنتشر في جسد قصتهما، يزداد الأمر سوءا.

إحساس بالذنب سيطر عليها، بدأت تفكر كيف تنجو بعلاقتهما نحو الأمان، لذلك قررت أن تستوعب غضبه وغيرته، لتجعله يشعر بالثقة مجددا نحوها ،هزها عدة مرات بقوة جعلت أسنانها تصطك إلا أنها شعرت بالضعف وبقوة موقفه. منذ يومين لا يتحدثان وكل منهما ينام بعيدا عن الآخر، بعدها قررت إعداد عشاء رومانسي تونسي بامتياز حين يعود إلى المنزل في نية الصلح.

حضرت اللبلابي مع ربع دجاجة، خففت إنارة الشقة مستبدلة إياها ببعض الشموع مع الموسيقى الهادئة، وبعض البخور. ارتدت فستانها الأحمر القصير الذي يبرز جمال ساقيها، مع فتحة طويلة من الخلف. تركت شعرها الغجري المتجعد الأسود

يسقط على كتفيها كما يحبه، مستخدمة بعض لمسات الماكياج، مع ملمع الشفاه الأحمر. بدت مغرية وشهية كوجبة الطعام التي أعدتها.

نظرت نحو المرآة شاعرة بالرضى الكامل، المائدة تبدو شهية، المنزل رائحتهمغرية. جلست على المائدة مترقبة أي صوت قادم من الخارج، أخيرا سمعت صوت المفاتيح، الباب يفُتح ومن ثم يغُلق.

بدا متفاجئا للحظة، ثم جلس على المائدة متظاهرا بأن لاشيء مختلف عن العادة ،لم يتمعن بوجهها حيث لم ينظر إليها.

اقتربت منه مقبلة خديه ،انتهيا من تناول الوجبة التي بدا أنه استمتع بها، سألته إذا يريد التحلية، أو يفضلها هي. لمعت عيناه قليلا لكنه تجاهل سؤالها وتلميحها. اقتربت منه وبدأت بتقبيله، ما هي سوى لحظات حتى شعرت بيديه تشتدان على جسدها، أخذها نحو الغرفة، حاولت أن تهدئ غضبه، لكنها لم تتمكن، طالبته ببعض الرقة، وكأنها طلبت منه مزيدا من العنف، أخذها بقوة فلم تستمتع !

نام بجانبها على السرير، شعرت بأنها تستحق هذا العقاب، لكن صوتا من بعيد في داخلها بدأ يعنفها متسائلا : كيف تسمحين له أن يعاقب جسدك بهذه الطريقة المتوحشة؟

_لأنني لا أستحق ثقته !

_ لم تخونيه ! لم تخونيه !

نامت على أصوات القبول والرفض بداخلها. استيقظت على لمساته في منتصف الليل. تظاهرت بالنوم، ظل يحاول مرارا وتكرارا، ولكنها تمكنت من التظاهر حتى نام مجددا.

## 7

## محاولات

**لـور/ بروكسيل**

قررتُ كسر الجمود بيني وبين توماس، قد تحدثنا خلال الفترة الماضية. يفضل الجلوس بغرفته متحاشيا التجمعات الاجتماعية. الأمور بيننا أصبحت أكثر تعقيدا حتى بدأ يتحاشى أخته كذلك، رغم أنه لم يسبق وأن تجاهلها.

طرقتُ باب غرفته واقترحت عليه مشاهدة فيلم معا في الصالة، رفض طلبي في البداية، وبعد عدة محاولات وافق على مشاهدته بصحبتنا وانضمت صديقته كيم . جلسنا أمام التلفاز. تأملت جلوسه بجانب كيم وعلى جانبه الأيمن نادية وأنا أجلس على أقصى اليمين، هذا يجعلني أشعر بالحب الكبير كما أنه يعطيني طاقة إيجابية تجعلني أشعر بأنني قادرة على مقاومة أي مرض قد يعترض طريقي مجددا.

جلوسنا بهذا الهدوء جعلني أشعر بالسكينة وأعطاني أملا كبيرا في أن الأمور ستصبح أفضل حالا في المستقبل القريب.

كنت قد اشتريت فيلما " شكرا إنه يوم الجمعة" من خلال موقع أمازون، مع توفرالترجمة الفرنسية. كنت قد قرأت عنه بعض المقالات، ولكني لم أجد الوقت الكافي لمشاهدته حين تم عرضه خلال مهرجان الأفلام الوثائقية في مدينة ميخلين.

بدا من المهم لي أن يشاهده توماس، مما سيعطيه فكرة أوضح عن القضية الفلسطينية وعن الشرق الأوسط، فيلم وثائقي يعرض الواقع حيث تم تصويره من خلال كاميرا تتجول بعشوائية لتلتقط الحقيقة. هذا الفيلم يوضح معاناة بعض المناطق الفلسطينية ،خاصة معاناة قرية النبي صالح. حيث تقوم هذه القرية صباح كل يوم جمعة بالاحتجاجات على التوسع الاستيطاني الذي يصادر أراضيهم ومنازلهم قسرا لتتوسع بعض منازل ) المستوطنين( الذين يعيشون في الضفة الغربية، حيث تمتاز منازلهم بمسابح ومساحات شاسعة ورفاهية كبيرة متباهين أمام الملاك الأصليين.

توماس متأثرا بصديقه "ميكائيل" الذي تعرف عليه خلال المدرسة، بعدما كان يعيش في شمال فلسطين قرب الحدود اللبنانية وقد عايش والديه تجربة الحرب الإسرائيلية اللبنانية وهو مازال طفلا صغيرا، مما جعل توماس يلوم العرب والفلسطينين ويتهمهم بالعنف؛ متبنيا وجهة نظره لذلك وجدت من المناسب أن لا أتدخل، وأن النقاش لن يفيد علاقتنا المتوترة ولكن قد يزيدها سوءا، جاء قراري بأن أترك هذا الفيلم يعرض الحقائق في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وأدعه يستكشف الأمور بنفسه.

سألت نادية : من يريد شرابا قبل أن نبدأ مشاهدة الفيلم؟
بعدما تناول كل منا مشروبه، شغلت نادية الفيلم، وعم صمت داخل الصالة .

انتهى الفيلم، وبدأ التأثر واضحا على وجه كيم ونادية فيما توماس بدا غير مهتم.
وبمجرد أن انتهى الفيلم علق قائلا : هل رأيت كيف ترتدي معظم النساء الفلسطينيات؟ إنه لباس قبيح !

عقبت كيم : هل تقصد غطاء الرأس؟

توماس : المجتمع الإسرائيلي هو جزء من أوروبا، وثقافته تشبه ثقافتنا و...

فضلتُ الصمت لا أرغب بدفع الأمور نحو الأسوأ. سألته نادية : أي بلد في هذا العالم له طقوسه الخاصة وثقافته التي يتفرد بها وأحيانا يعتز بها رغم أنها شيء عادي بنظر الآخرين.

استطردت نادية : دعنا ننظر للأمور بوجهة نظر مختلفة، لا يهمني الجنسية أو الدين على قدر ما يهمني بأن هناك إنسانا ! وهذا الإنسان قد يعاني أو يضطهد.

وجدتها الفرصة المناسبة لأعلق: إنسان .

قالت كيم : أتخيل بأن ما يهم هو الإنسان أكثر.

بدا توماس غير مرتاح إلى أين سيأخذه هذا الحوار، وبدأت أفكار مختلفة ومتنوعة تتدافع في رأسه.

_ العرب يرسلون أطفالهم للموت!

كان علي أن أقول شيئا وإن كان كلامي ثقيلا على قلبه : لا يمكن لأم أن ترسل ابنها للموت، كل ما هناك بأن هذا الطفل يولد خلال الحرب، يرى الموت يوميا ،فتجده مسؤولا عن قضية ،يقاتل لأجلها، فيجد نفسه مضطرا أن يكون مقاتلا، هولم يختر هذه الحياة، كان يمكن أن تكون أنت من ولد هناك يا توماس.

_ أنا لن أكون متخلفا أو عربيا!

_ نحن لا نختار أين نولد، وماذا نريد أن نكون، بالطبع أنت محظوظ بأنك ولدت في بلجيكا.

_ كنت سأكره نفسي لو ولدت عربيا ! ألا ترين كيف يرسلون صواريخ إلى تل أبيب ؟ ويقتلون الأبرياء.

_ كل ما يمكن أن أقوله بأن العنف يولد عنفا.

_ ولكن الجيش الاسرائيلي مهمته الدفاع عن دولته، بينما في غزة والضفة الغربية مجرد مجموعة من الإرهابيين يرسلون الصواريخ ! هل أنتِ مع العرب ؟

قالت نادية : أنا أنظر إلى المرآة أرى نفسي إنسانا، ولا أرى نفسي يهودية أو عربية. لذلك سأدافع عن الإنسان وليس عن نوعه.

_ ألا ترين ماذا يحدث في الدول العربية ؟

_ لكن هذا ما حدث في أوروبا سابقا، وأخذ منهم عمرا طويلا لكي يصلوا لهذه الحرية التي يتمتعون فيها الآن.

استطردتُ : حين يسُرق بيتك أمام عينيك، ستدافع عنه وتحاول ألا تخسره، هذا ما يحاوله الفلسطينيون.

_ في إسرائيل هناك ديمقراطية على الأقل غير موجودة في مكان آخر في الشرق الأوسط !

أخبرته : هذا ليس صحيحا !

_ هم لا يقتلون بعضهم البعض! يعيشون بسلام، صحافة حرة، ورأي حر.

_كنتُ في إسرائيل التي تعتبرها أفضل دول الشرق الأوسط، إنها تفرق بين اليهودي من أصل أوروبي، ويهودي من أصل إفريقي أو عربي. تميز بالحقوق و في المعاملة، أغلب اليهود من الشرق الأوسط أو أفريقيا يقطنون المستوطنات ،بينما يهود أوروبا يعيشون في أفضل المدن في منطقة 48، هل هذه العدالة الاجتماعية التي تتحدث عنها؟ هل هذه هي الديمقراطية التي توفرها إسرائيل ؟ إن كنت تعتبرها جزءا من أوروبا، فسنجد هذا السؤال الذي يطرح نفسه، ماذا تفعل إسرائيل في الشرق الأوسط ؟!

هذا الفيلم لم يغير وجهة نظره. النقاش لم يؤد إلى أي مكان، بل زادت الأمور حدة. نادية أيضا تقف بقوة نحو الإنسان وتتعاطف بشدة مع المضطهد، وهذا ما استفزه أكثر.

بعد ساعة من النقاش العقيم، نهض توماس إلى غرفته بصحبة صديقته. نادية التهت بواجباتها، أنا جلست أمام شاشة الحاسوب ولأول مرة لا أبحث عن سارة.

هذا الشعور الغريب في داخلي، يخبرني كم كان سيكون صعبا ملاقاتي لسارة رغم قربها الشديد مني، وهذا ما جعلني لا أفقد الأمل، ولا أتكاسل، حتى التقيتها وتصافحنا!

اقتربت نادية : ماما هل تريدينني أن آتي معك غدا لموعدك عند الطبيب؟

ابتسمتُ وأنا أخبرها : الأمور جيدة، لا تقلقي، بعض الإجراءات الروتينية.

قبل ت وجنتي ومن ثم صعدت إلى غرفتها، ثم قالت : كما تريدين.

كنت أعرف أن هناك أمرا غريبا يحدث، فالطبيب أكد بأن الأمور جيدة بعد العملية الجراحية التي أجريتها منذ عامين، ولكن رغم ذلك هناك بعض الأمور الغامضة التي تحدث، وليس هناك سبب طبي يوضح السبب، سوى أنه أمر نفسي.
وعلي أن أقبل هذا التفسير الوحيد لحالتي.

هاتفتُ زينة في الصباح، لأقدم التعازي بوفاة الجد، بدت حزينة وشكت لي بأن المنزل يبدو كئيبا. الجميع غائب. هي تجلس وحيدة أغلب الأحيان. تحدثنا واسترجعنا الكثير من الذكريات، أخبرتني كم ذكرني الجد في الآونة الأخيرة. عن خيبته الكبيرة بأن عمر لم يأخذني زوجة. ضحكنا سويا وهي تخبرني هذا ،استطرد ت قولها : من الأفضل أن لا تسمعني زوجته الآن !

_ هل مازلتِ تتحاشين ذكر اسمي أمامها؟

_ كنت أتحاشى ذكر اسمك في السابق، ولكن الجد ما يلبث وأن يذكرك، فيشعل قلبها بالغيرة.

لم أتمكن من تحاشي السؤال الذي بدر إلى ذهني : وعمر؟

_ هل تتحدثون؟

_ خصامنا استمر طويلا، أرسلت له رسالة بوفاة الجد، لم أستلم منه أي رد.

_ لم يذكر أي منكما ما الذي حدث ! ضغط الجد عليه كثيرا ليعرف الحكاية، لم يخرج من فمه شيء!

_ ابنك، ألا تعرفينه !

_معك حق. عنيد كالبغل !

ضحكنا قبل إنهاء المكالمة. أشعر بتأنيب الضمير دائما بعد مكالماتنا سويا، الأمر يزداد سوءا مع الوقت، قد مرت فترة طويلة يكاد يكون التواصل شبه معدوم بيننا ،منذ تدهور وضعي الصحي، عدنا للتواصل مجددا وبكثافة. أصبح هذا التواصل أكثر سهولة مع تقدم هذه التكنولوجيا، حيث يمكننا استخدام الواتس آب و في بعض الأحيان نستخدم السكايب. جعلنا نشعر بالقرب مجددا. خاصة بعد أن تزوج كل أبنائها. والدتها وافتها المنية منذ عدة سنوات. خسرت الجد أيضا فأصبحت وحيدة بهذا المنزل !

وهذا سبب آخر يجعلني أشعر بالمسؤولية تجاه توماس وأفكاره عن القضية الفلسطينية.

في صباح اليوم التالي خرجت من العيادة الطبية، مرتاحة وحزينة في آن واحد ،حتى هذه اللحظة لا يوجد تفسير طبي لحالتي، كافة التحاليل الطبية تشير إلى سلامتى الصحية، حيث لا يوجد أي مؤشر لوجود أي مرض في جسدي مجددا.
هذا جعلني أشعر بالراحة، لكن مازال يقلقني بأن شعر رأسي لم يعد ينمو ! هذا يجعلني أشعر بالإحباط قليلا والخوف.

أيقظني من خيالاتي رنين الهاتف الخلوي، رفعته إلى أذني : أهلا شروق، كيف حالك؟

منذ لقائنا الأول أمام السفارة الإسرائيلية ونحن متواصلتان. هي مستمرة في إجراءات التبني وسيكون لديها ابنة.

_ اليوم لا يمكنني الانضمام، أشعر بالتعب قليلا، لكن أبلغيني إن كان هناك أي نشاطات لاحقة، سيسعدني الانضمام.

وعدتني بأنها ستفعل، عدت أدراجي إلى البيت، وشعور بالحزن يطوف حولي ،مما جعلني أفضل المكوث في المنزل عن الخروج. ولذلك رفضت دعوة شروق ،وربما لأنني التقيت بسارة فعلا.

بعد مرور بعض الوقت من محادثتي مع زينة وعن شعورها بالغربة داخل المنزل. أتذكر زيارتي لهم في بداية الألفين، كان البيت ممتلئا، عامرا، والآن انشغل الجميع بحياته، وأبنائه، تعيش وحيدة في منزل كان يضم أكثر من تسعة أفراد. هذا يجعلني أفكر هل تشعر زينة بالوحدة ؟ هل هذا سيكون مصيرها لو تزوجت بعد استشهاد زوجها ؟

هذه المحادثة أشعرتني بالقلق نحو مصير توماس، لكنني لم أجرؤ على التفكير بهذا المصير. حتى ملاقاتي سارة.

منذ اللحظة التي التقينا، أخبرتها بصراحة تامة : أخيرا التقينا !

رفعت حاجبها وهي تقول : هل أنا مطلوبة أمنيا ؟

ضحكتُ : مطلوبة من فضولية مثلي !

_ السبب؟

حين شعرت بنظراتها القلقة نحوي، ربما هذا بسبب الظروف السياسية في فلسطين، قررت أن أكون أكثر وضوحا، لكي أتجنب أي سوء فهم.

_ تقابلنا مرة، كنت أجلس خلفك في الباص أو الترام لم أعد أذكر، وآسفة لأنني سمعت محادثتك مع صديقك، لكن تنصتي لم يكن مقصودا. لكن ربما اللهجة الفلسطينية، وطريقتك أعادتني إلى فلسطين، بزينة صديقة لي، وبحبيب قديم.

سارة لم تعلق على أي من هذا لكنها قالت : لهجتك الفلسطينة متقنة. تتحدثين العربية بطلاقة يا لور!

_ درستها وذهبت إلى فلسطين ،ووقعت في غرام شاب فلسطيني. بعد زواجي أيضا كنت أسافر إلى المشرق دائما.

ضحكت سارة : سمعت قصصا كثيرة عن الحب واللغات !

_ وما سمعته صحيحا !

ضحكت كلتانا.

## 8

## بـدايـة

### مـــريم

جلست على المقعد الخشبي المقابل للباب الرئيسي في مقهى السان جيري، تراقب من حولها، بدا المكان مهجورا في هذا الوقت المبكر إلا من عدد قليل من الشباب صغار السن. شرب ت رشفات من كأس الماء الذي طلبته ثم غادرت المكان. لم تجد الفتاة التي أعطتها، تبدأ عملها مساء، لذلك قررت أن تعود من أجلها في وقت لاحق.

مريم خائفة أن ينتهي فضولها نحو هذا المعجب السري بمجرد معرفة هويته ،لذلك انتظرت بضعة أيام قبل أن تقرر العودة إلى الكافيه مجددا لتسأل عن مرسلها، هذا الشعور الذي يصاحبها من انبهار وفضول قد يختفي بلحظة كما بدأ وهذا ما يشعرها بالخوف، لأنه قلما تشعر بشئ مميز هكذا.

هذه المرة تشعر بالاستعداد في أن تسمح لنفسها الدخول بعلاقة غرامية، أن تترك جسدها يكتشف نفسه، أو ترمي ثقل الماضي على كتف رجل يفهمها ويجعلها تحب نفسها مجددا. منذ وقت طويل لم تفعل. حاولت مرارا أن تجد ما هو مناسب ،وقد يكون طريقا صحيحا. إلا أنه لا يناسبها. عقلها وجسدها يحتاجان إلى طقوس مختلفة كليا، تدرك ذلك جيدا لذلك ما زالت تبحث، حتى هذه اللحظة لم تعثر علىخيط واحد يدلها على ما تنتظره ،والغريب بأنها لا تعرف ما هو.

خرجت من مقهى السان جيري متجهة نحو مبني "لا بوخس". مر في خاطرهاتلك الليالي التي حاولت بها أن تكسر جمود جسدها ونفوره. خرجت في أحد المساءات مع عدة أصدقاء لقضاء ليلة مرحة وفي نيتها أن تقُبل غريبا، لكن الحقيقة التي حدثت بأنها عادت إلى المنزل وحيدة، ولم تمتلك الجرأة لتكلم رجلا.

قابلت فتى إيطاليا أثناء سهرتها، دعاها للرقص؛ فقبلت دعوته، رقصا لوقت قصير ثم شعرت به يتمايل مقتربا من جسدها، فشعرت بالنفور، بدا جسدها متوترا رافضا هذا القرب الذكوري مجددا، رغم ذلك كانت تعود إلى هذا المكان مجددا وتكرارا.

وصلت إلى المنزل قبيل الفجر، رأت جارها الأشقر يقبل حبيبته، قبلتهما تعد بكثير من المرح ووقت أكبر على السرير. رأتهما يدلفان نحو الداخل ببطء والشاب يلتهم حبيبته التهاما بقبلاته. ترى بوضوح شوقهما، لم تخجل من التحديق ،حيث لم تجد ضررا في ذلك لأنهما لا يدركان وجودها وهما في حالتهما هذه.
اعتادت أن تراهما في حالتهما هذه منذ شهرين تقريبا، مما فتح شهيتها نحو الحب.

دخلت إلى المنزل بهدوء شديد لكي لا يشعر والداها بتأخرها، رغم وجودهما معها إلا أنها تشعر بوحدة قاتلة. رمت نفسها على السرير وهي تتحسس الجانب الفارغ منه. متسائلة عن كيفية إحساسها بوجود رجل ينام بجانبها، ينامان جنبا إلى جنب. تستيقظ في الصباح لتجده ملتصقا بها، أو ملتفا بالبطانية كاملة تاركا إياها تشعر بالبرد، أو ربما محتلا للسرير بجسده الضخم مما يترك مساحة ضيقة تكاد لا تكفيها وهذا قد يتركها عرضة للوقوع أرضا بسهولة، أو ربما تستيقظ على قبلاته التي تسقط على جبينها ووجنتيها وثغرها، مما يجعلها تستقبلها بحب. لكن أيا من هذا لم يحدث وستظل متسائلة عن هذا الشعور، وكيف سيكون إحساسها وهناك رجل ينام بجانبها.

أصبح مبنى " لابوخس " خلفها، متجهة شرقا نحو محطة القطار الرئيسية، تنظر حولها جيدا، فترى بعض السكارى يجلسون على ناصية الشارع وبصحبتهم كلبهم الضخم، يتسولون السجائر من المارين ،في مرات كثيرة تشتري لهم السجائر. لم تخبر أحدا عن جنونها هذا. تفهم اللذة التي يسرقونها من خلال تدخين سيجارة وسط هذا البرد، فيشعرون بالفرح لأمر بسيط، فتحب أن تشاركهم هذه السعادة ،رغم أنهم لا يدركون وجودها. رائحة أنفاسهم القوية المعبقة بالخمر لا تزعجها ،ترى تلك اللمعة في أعينهم منتظرين منها أن تمد يدها كعادتها مقدمة بضع سجائر وفي مرات أخرى تشعر بسعادة أكبر وهي تقدم لهم العلبة كاملة.

شاركتهم التدخين في مرة يتيمة استمعت إليهم يتحدثون ويتحدثون وكأنهم لم يفعلوا منذ زمن، تستمع إليهم كما لم تستمع لأحد من قبل ولا تنبس بكلمة. رمت عقب

السيجارة ودهستها بقدمها، طأطأت برأسها دون أن يخرج منها صوت وسارت نحو طريقها. الليلة تنظر نحو البقعة التي يحتلونها عادة فلا تجدهم؛ لتستكمل طريقها شرقا نحو محطة الباصات، بعد أن أرجعت السجائر مجددا في محفظتها. حين شاركتهم تلك الليلة شعرت بطاقة إيجابية غريبة تغزو جسدها ،سعادة مجنونة لا تفهم مصدرها، هل هذا بسبب تقديم تلك العلبة التي تساوي مبلغا قدره أربعة يوروهات، أو تلك الأحاديث العابرة مع مجهولين، أو كلبهم الذي ينبحنبحته اللطيفة حين تقترب منهم.

شعرت بالخيبة لأنها لم ترهم يجلسون كعادتهم. بدا مكانهم خاليا وهادئا جدا مماترك وقعا ثقيلا في داخلها.

وصل ت إلى محطة الحافلات، بدا الباص متأخرا، نتيجة لذلك تجمع عدد كبير من الناس في انتظار قدوم الحافلة، بمجرد وصولها بدأ الناس يتدافعون بالدخول ،متمنين الحصول على مقعد فارغ وسط هذه الزحمة. جلست مريم بجانب امرأة ثلاثينية تتحدث عبر الهاتف بصوت منخفض، وبدا الجميع منشغلا بهاتفه المحمول، سرحت بأفكارها تتأمل الموجودين من حولها لكنها فعليا لا ترى أحدا ،وصلت الحافلة إلى محطة التوقف القريبة من منزلها بعد عشرين دقيقة من التحرك. اتجهت نحو منزلها الذي يبعد دقيقتين من المحطة، ستنام الليلة على سريرها المفرد وحيدة مجددا.

## مـــها

استيقظت على غير عادتها مبكرا. شعرت بدمعة طازجة على وجنتها اليمنى.
تذكرت بأنها قضت ليلتها أحلاما متسلسلة حتى الصباح، ولا تتذكر أي شيء منها، هذه الأحلام تركت أثرا على مزاجها الصباحي. جعلها غير قادرة على الضحك، تشعر بخمول وحزن غير مبررين. اتجهت نحو النافذة بعد أن فتحتها لكي تستنشق بعض الهواء المنعش لعله يغير مزاجها، إلا أنها رأت السماء رمادية وحزينة كحالتها. أشعة الشمس تسقط عبر النافذة، إلا أن هذا لم يساعدها في أن تشعر بحالة أفضل، بل شعرت بالغرفة تضيق بها، والدموع تتجمع في مقلتيها ولا تخرج. بدأت تتأمل المدى الواسع أمامها، على الرغم من أن الحياة واسعة ولكن كل شيء يضيق بها، بلادها تعاني من الموت والإبعاد. ولما بات عليا صديقا في صفحتها الفيس البوك، صار بإمكانها أن ترى منشوراته التي يضعها على حسابه الشخصي، شعرت بلحظات قليلة من السعادة، لكن سرعان ما اختفى هذا الشعور ،لا ترى خيطا واحدا يدلها على والدها. بحثت عنه في كل مكان داخل دمشق.
راودها شعور بالضعف لكي ترسل ل علي رسالة وتسأله عن أخباره وتخبره ببساطة من هي.

جلست على الأريكة بعد عودتها من درس اللغة الفلمانية التي بدأت تدرسها منذ حصولها على الإقامة. تفكر بإرسال رسالة إليه، ثم عادت بذكرياتها إلى صداقتهما حين كانا يتبادلا الكثير من الهموم والتفاصيل الصغيرة. هل إرسال رسالة صغيرة عبر حسابه الفيس بوك تستحق كل هذا التخبط والحيرة ؟ لكنها لم تتمكن من فعلذلك. خانتها شجاعتها في اللحظة الأخيرة.

قرر ت الخروج مجددا إلى المكتبة العامة مما أثار استغراب سارة من خروجهاولكنها لم تتفوه بكلمة، فهي تعرف كم تحتاج إلى حريتها. وصلت مها إلى مكتبة مُنت بوُنت بجانب الأوبرا في منطقة دوبركير وسط مدينة بروكسيل. جلست على المقعد المواجه للنافذة في الطابق الأرضي من المكتبة. يتناول الجميع قهوتهم باسترخاء مع قراءة كتاب أو جريدة. تناولت كتابا باللغة العربية أحضرته معها وبدأت تقرأ. بعد قليل تناولت كمبيوترها المحمول لإنهاء بعض الأمور العالقة كدفع الفواتير والإجابة على بعض الرسائل التي أهملت الإجابة عليها.

فجأة دون سابق إنذار، توقفت عما كانت تفعله، شهقت بقوة. بدأت تبكي بقوة. صوتها لفت إليها الجالسون، لم تدرك أنها بكت أمام هذا الجمع، بكاءها علني، و هذه الدموع مرئية، لم تكف عن البكاء، حتى بدأ الجميع يتساءل عما أصابها ،اقتربت المرأة العاملة منها.

_آنسة، هل أنت بخير؟

نظرت نحو المرأة الغريبة. التفتت حولها فلم تجد شخصا آخر قد تتحدث إليه هذه المرأة.

استغربت عن سبب اهتمام هذه المرأة بها، تسألها عما ألم بها وإن كانت بخير ،فهي لا تفعل شيئا، تجلس بهدوء على مقعدها، هل صمتها خدش هدوء المكتبة ؟ أليس من المعتاد أن تكون المكتبة هادئة ؟

التفتت إليها. ثم سألتها : هل تقصدينني أنا إن كنت بخير؟

طأطأت المرأة العاملة برأسها، وعيناها متسائلتان.

_ أجل، جيدة جدا. لاشئ يوجعني !

رفعت المرأة حاجبها مندهشة من توقفها المفاجيء عن البكاء، التفتت بعيدا عنها ،لم تفهم مها ما قصدته هذه المرأة، ولم هؤلاء ينظرون إليها بهذه الشفقة والدهشة.

خرجت من المكتبة لا تدرك بأن بكاءها كان علنيا. صارخة بأعلى صوتها، وقد ظنت بأنه كان صامتا كما العادة. قبل عودتها قررت الذهاب إلى السوق العربي القريب من محطة كالمينسو. تكتظ هذه المنطقة بالمحلات العربية الشرقية، فيما تكتظ العاصمة بالمحلات المغربية وخاصة في منطقة مولمبيك والمحلات التركية في منطقة سكاربيك، هذا تحصيل حاصل لحقبة الستينات.

لم يكن غريبا أن تجد المحل اللبناني مكتظا بالزبائن العرب الذين يحنون إلى الأكلات والحلويات العربية الشرقية، مثل الملوخية المجمدة لعدم توفر أوراقها طازجة، والفلافل نصف المقلية المجمدة، معلبات الحمص ومعلبات بابا غنوج ومعلبات الفول المتبل. في السابق تناثرت بعض المحلات الشرقية في المنطقة ،فيما تتوسع المنطقة أكثر وأكثر مع محلات جديدة شرقية، بحثت عن "عين الجرادة "

لتستخدمها مع السلطة وزيت الزيتون. لكنها لم تجدها في أي من المحلات العربية، وربما هو الشيء الوحيد الذي غفلوا عن تصديره إلى أوروبا.
نظرت داخل الغلاف البلاستيكي الأبيض لتتأكد من شرائها كل ما يلزم من المحل، أعطت الشاب نقودا. خرجت متجهة نحو مترو " كالمينسو".

لا تتحدث اللغة الفرنسية بعد، استطاعت أن تخُلص كل أمورها في بروكسيلباللغة العربية أو التركية أو الإنجليزية. رغم مواظبتها على دروس اللغة فلم تستطع تعلمها، رغم أنها تشعر بالحب تجاه هذه اللغة. تشعر وكأنها ميتة من الداخل، هيكل عظمي مغطى بالجلد يتحرك كآلة، تشعر بجسدها المتعب دائما ، أنهكت ولم تعد تملك شيئا واحدا يمكنها أن تساهم به نحو هذا العالم أو يمكنها أن تعطيه لشخص ما وهذا سبب ترددها في التحدث إلى علي.

لبسها الجنون في لحظة، فكتبت " مرحثا " وأرسلتها دون أن تقرأ ما خطته يداها ،وأغلقت الماسنجر الخاص بالفيس بوك، مرت ساعة كاملة، أرادت أن تفتح المحادثة لكي ترى إن كان قد رأي الرسالة فعلا وتجاهلها، أو لم يقرأها بعد.

_ مرحثثين

_ مرحثثين؟

ثم قرأت مجددا رسالتها، فرأت بأنه استخدم نفس الخطأ الذي استخدمته في كتابة الكلمة، ولم تنتبه بأنها استخدمت حرف الثاء بدلا من حرف الباء.

ثم عادت لتكتب : خطأ مطبعي !

_ ولا يهمك. هناك أخطاء تحدث عن سابق إصرار وترصد.

_ مثلا ؟

_ ما يحدث في سوريا الآن !

بمجرد أن انتهت من قراءة ما كتبه، حتى شعرت بخنجر يغمد في صدرها ،ولاحت صورة والدها جالسا على الأريكة منتظرا عودتها من الخارج، ينظر إليها بعينيه الحالمتين وهذا أكثر ما يجرح قلبها تشتاق له بدرجة مخيفة. ليس بيدها أي حيلة، هو قريبها الوحيد في هذا العالم.

_ ...

_ صمتك لن يدخلنا في جدال عقيم كما أتمنى.

_ لدي أحلام كبيرة، هذا العالم لا يسعها، أو مجرد عالم أناني لا يعيرني انتباهه.

_ الحلم مرتبط بالمكان ،بعض الأماكن تجعل أحلامنا مستحيلة، وأماكن أخرى تجعلها ممكنة.

_ هذا يعني أننا لا نمتلك الحظ الكافي حيث ولدنا على أرض عربية، لا تبالي بأحلام مواطنيها.

_ من يعرف ماذا سيحدث بعد سبعين عاما من الآن. قد تقلب الآية كليا. ومن يعيش في أوروبا قد يتمنى العيش في الشرق الأوسط. حدث وأن كانت أوروبا في حروب وثورات مميتة قبل سبعين سنة، من يعرف ؟!

ضحكت من قلبها وهي تكتب له : وسيطلبون اللجوء في الشرق الأوسط ؟

أجابها : وقد نمنحهم القبول على طلبهم أو قد لا تقنعنا أسبابه لهم، فنطردهم !

ضحكا وهما يتخيلان هذه الصورة. بدأت المحادثة بينهما سلسة دون أسئلة أو استجواب من أي منهما.

دام الصمت للحظات وهي تنظر نحو الشاشة منتظرة أن يخط شيئا ما ،تراقبالشاشة بلهفة. بدأت تلاحظ أنه يكتب شيئا، فركزت نحو الشاشة تنتظر أن يصلها ما يكتبه في هذه اللحظة.

_ عل ي الذهاب إلى مكان ما الآن، نتحدث لاحقا ؟

شعرت بخيبة أمل كبيرة لأنه سيغادر ويتركها لأفكارها، وبؤسها ووحدتها .

في ا ل ي و م التالي خرجت منذ الصباح، أثناء عودتها في المساء وجدت سارة أمام التلفاز تشاهد نشرة الأخبار. تنظر إليها بابتسامة فضولية.

علقت سارة : تبدين أكثر جمالا هذه الأيام.

ضحكت مها.

ثم تقدمت منها وجلست بجانبها وهي تسألها : هل لاحظت جمالي اليوم فقط ؟

ابتسمت سارة وهي تخبرها بصدق : في الحقيقة تامر من لفت انتباهي

_ هههههه، كيف ؟

_ تماما كما أخبرني، ماما مها قد أصبحت جميلة جدا !

استطردت حديثها : حين دخلتِ من باب المنزل رأيت ذلك أيضا، هناك شعاع جميل يخرج من روحك، لم نرك مضيئة بهذه الصورة منذ فترة طويلة.

_ تامر هو من ينتبه عادة إلى تفاصيلنا.

_ إنه الرجل الوحيد في حياتنا حتى هذه اللحظة !

حين لم تعقب مها، عادت سارة إلى النظر إليها جيدا وقد اكتشفت شيئا.
فاستطردت: حب جديد ؟!

_ نعم ولا .

اعتدلت سارة في جلستها وبدا واضحا بأن الحديث أثار اهتمامها أكثر. حين لم تجد أي ردة فعل من مها، رفعت حاجبا واحدا مستنكرة صمتها. ف همَّ ت مها بالقول : سأخبرك وأمري لله .

ابتسمت سارة وهي تخبرها : لا هروب !

_ هو حب ولكن ...

_ لكن ؟

_ أعرفه منذ سنوات.

_ علي ؟ الشاب الذي رفضته بسبب اختلاف الطائفة الدينية ؟

_ أجل، هو نفسه !

_ كيف ؟

_ هذه حكاية طويلة !

_ ما الذي جعلك تغيرين رأيك الآن ؟

_ سوريا !

_ لم أفهم، ماذا تقصدين بأن سوريا هي السبب في قبولك له الآن.

_ ما يحدث في سوريا الآن. لكي تعود سوريا الجميلة، علينا أن نتعلم أن نحببعضنا البعض، بطوائفنا المختلفة. أن نندمج ونتخلص من تعصبنا ومن تحزبنا.

نهضت سارة عن مقعدها وعانقتها بقوة وهي تخبرها بأنها سعيدة من أجلها ،وتتمنى لهما حبا طويل الأجل.

بدأت الحكاية حين بدآ يتحدثان عبر الفيس بوك، ولم تتجرأ أن تعلن عن نفسها في الأسابيع الأولى من علاقتهما، بدأت شرارة التفاهم بينهما، اعتاد أن يخبرها عن شعوره بالراحة وكأنه يعرفها منذ زمن، وبأنها تفهمه جيدا، فلم تحتمل شعورها بالذنب فقررت أن تعلن عن اسمها، أن تكشف هويتها، رغم خوفها من ردة فعله.

_كيفك أيتها الزهراء ؟

_ تمام، وأنت ؟

خلال دردشتهما لم يسأل أي أسئلة شخصية، وهذا ما جعلها تشعر بالراحة أكثر ،تقبلها كما هي دون أسئلة، واكتفى في مناداتها بالزهراء وهو الاسم المستعار الذي اختارته، حيث ترك لها الخيار بشكل غير مباشر لكي تتحدث عن نفسها بالطريقة التي تحبها.

_ هل تعرف بأني نصف سورية ؟

_ إذن متورطة؟

_ متورطة جدا يا عزيزي، ماذا عنك ؟

_ هذا يعني أنك تشعرين بالاستعداد لكي نتعارف بدون حواجز ؟

_ نوعا ما مستعدة لكي أهدم الجدار.

_ موافق.

_ الليلة سأكون صريحة .

_ أين تعيشين الآن ؟ في سوريا ؟

_أنا أعيش في بلجيكا.

مرت لحظات صمت، يبدو وكأنه كتب شيئا ما ولكن لا شيء يصلها منه. أخيرا أرسل شيئا.

_ في أي مدينة تعيشين ؟

_ بروكسيل، وأنت ؟ هل مازلت في تركيا ؟

_غادرت تركيا منذ عدة أشهر في الحقيقة. وأنا حاليا في مدينة أنتويرب !

قرأت مها جملته عدة مرات، ولكنها لم تفهم إن كان يمازحها أو إنه فعلا يعيش على مسافة قليلة منها.

_ أنت تمزح.

_ في الحقيقة نحن نعيش في نفس البلد.

في هذه اللحظة لم تعرف كيف تتصرف أمام هذه الحقيقة التي جعلتها ترتجف. جعلها هذا تشعر بالحماية والضعف. مرت لحظات ثقيلة عليهما. لم يبادر أي منهما بالحديث. كان واضحا جدا بأن هذه المفاجأة قد أسعدتهما ولكنها مفاجأةأخرستهما كذلك وأربكتهما.

وأخيرا وصلها : إذا أيتها الزهراء !

_ في الحقيقة أردت هذه الليلة أن أخبرك حقيقة من أنا، ولكن واقع أننا نعيش في نفس البلد أربكني جدا !

_ هل تتخيلين أنني لم أعرف من أنت ؟

_ ماذا تقصد؟

_ أعرف جيدا من أنت.

_ .....

وأخيرا كتبت : من أنا ؟

كانت تنتظر إجابته على أحر من الجمر، شعرت كأن وقتا طويلا قد مر قبل أن يرد عليها.

_ أتذكر لقاءنا الأخير، حين قررت أن تخسريني، وتجاهلت مشاعرنا وهربت !

نزلت الدموع متدفقة على وجنتيها. إحساس مختلط من الندم والضعف والحب.

_ آسفة، لم أكن ناضجة كفاية لأفهم. ربما كنت بحاجة لأعيش ما عشته في السنوات الأخيرة لكي أفهم! آسفة لأنني استغرقت وقتا أكثر مما يجب. آسفة لأنني كنت مخطئة. وآسفة لأنني كذبت في حينها. آسفة لأنني قررت أن أكون جبانة وأخسرك على أن أكون قوية وأستحقك !

مرت لحظات قليلة حتى كتب مجددا.

_ مها . نعيش في مكان واحد. قريبة مني لدرجة لم أتصورها !

ابتسمت وهي ترى كلماته.

الليلة هي الليلة الوحيدة التي نامت مها بهدوء. نامت بعد أن تواعدا بلقاء قريب.

**الـجــزء الثـــانـــي**

**9**

## مـريـم

قبلت مريم دعوة برونو للذهاب إلى مدينة أوستند ،بعدما تأكدت من أنه معجبها السري. واظبت الذهاب إلى سان جيري حتى تقابلا مجددا، وقد استغرقهما هذا الأمر عدة أسابيع.

وافقت أن يقضيا النهار سويا، أرادت أن تسير حول شاطئ البحر الذي يقع في شمال أوروبا. السماء زرقتها باهتة، والشمس شاحبة، الأرض تبدو باردة ومبتلة ،والشاطئ يبدو مهجورا خلال هذا الشهر من العام.

خرجا من محطة القطار الرئيسية للمدينة. هو يرتدي ملابسه الواسعة المعتادة ،تاركا شعره غير مهذب ،أما هي ترتدي فستانا يحدد تفاصيل جسدها، مع شال كبير يغطي رقبتها ويحميها من هواء بحر الشمال البارد. يسيران جنبا إلى جنب متخذين طريقهما شمالا نحو الشاطئ من خلال الدخول إلى مركز المدينة.

بدت المدينة تشبه نفسها. لا تشبه بروكسيل، سكان هذه المدينة يحملون حبا كبيرا للكلاب، بدت المدينة مشهدا حياً لمشاهدة كافة أنواع الكلاب. بعضها مميز. امرأة عجوز تدفع عربة أطفال بصحبة رجل بنفس العمر تقريبا، يتجولان بعربة الأطفال داخل المدينة. حين تقدما بخطواتهما نحوهما. رأيا كلبين صغيرين يتدثران بلحاف صغير داخل العربة.

مريم وصديقها يبدوان متنافرين كذلك بشكل لافت للنظر، لوحة فنية تجمع بين قارتين، أو لوحة تمزج الصحراء بالبحر. اقتربا من الشاطئ حيث بدا مرئيا أمام ناظريها، فأسرعت الخطى متجهة نحو الشاطئ، رغم زرقته الباهتة إلا أن البحر جذبها نحوه، فأسرع برونو الخطوات ليجاريها. توقفت وهي تغمض عينيها ،تتنفس الهواء بعمق ثم همست : هذا البحر لا يشبه مدينتنا!

_ تقصدين المحيط؟

_اسمه بحر الشمال.

_ فعلا، وكذلك يتصل بالمحيط الأطلسي من الجنوب، هل هناك محيط في العراق؟

ضحكا معا. سألته : كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟

اتفقا على لحظة صمت، بدا كلاهما مستمتعا بهذا الجو الذي يبعث طمأنينة وهدوءا ووعدا بقبلة. هو ينظر إليها متأملا سعادتها. ابتسامتها التي لا تفارق وجهها وهي تراقب الأمواج تقترب وتبتعد كأنها تخاطبهما، شعرها يتناثر حول وجهها ،وبعض الخصلات تبدو عنيدة كلما أزاحتها عن عينيها تعود لملامستها مجددا.

وقف يراقب حركة جسدها المتمايلة مع حركة الأمواج وبدا وكأنها نوتة موسيقية تعُزف. بدت ضحكتها تنتشر في الأجواء ليبددها الهواء قبل أن تصل إلى المارين. اقترب من خلفها يمد ذراعيه يريد أن يلصقها بصدره. ربما يعتصرها متماشيا مع جنون اللحظة، ما هي سوى لحظات حتى التفتت إليه وكأن جسده أرسل إليها بعض الموجات التنبيهية، رأت في عينيه تلك النظرة، وما تعدبه، استقرت يداه على جانبيه مجددا، نظراتها نحوه قد أضعفته، وأفقدته شجاعته.

التقطت أثار ما يدور برأسه، فسألته مباشرة: قبلة ؟!

_ ليس تماما ؟

_ جنس أمام الشاطئ ؟

_ لا.

_ ألا تريد ؟

_ أريد. لكن ما أحتاجه منك الآن مختلف كليا.

_ هل ما تحتاجه سيسعدني ؟

_ ربما ...

_ بما أنك غير متأكد، دعنا ننساه.

_ قاسية !

التفتت نحو البحر وهي تهمس : البحر جميل.

أثاره تجاهلها، وضع يداه على ذراعيها بقوة، مقتربا منها، حتى تلاصقت أجسادهما تماما.

غمغم بين غضبه : دائما ما تثيرين هذه الأمور، لكنك فعليا تخافين من أن تحدث.
صمتت وهي تحاول التخلص من قبضته القاسية على جسدها وكأنه يعاقبها ،تركها حين شعر بانزعاجها، متمتما بأسفه.

_آسف، لا أقصد!

ابتعدت عنه عدة خطوات متجهة نحو الشاطئ أكثر، وقلبها يرتفع بصوت نبضاته وينخفض بقوة. تريد هذه القبلة التي ربما كانت على وشك الحدوث، لكنها شعرت برغبتها في التخلص منه. خافت إن فعل أن لا تشعر بشيء، وإن شعرت شيئا لا يكون سوى النفور. هو يعجبها جدا، يعجبها أن تقضي وقتا طويلا معه، ليست مستعدة أن تخسره الآن. تحتاج إلى مزيد من الوقت.

عادا إلى بروكسيل بالقطار. خيم عليهما الصمت حتى وصلا إلى محطة بروكسيل الرئيسية، شعرت بوخزة ألم بسبب صمته، حاولت أن تكسره لكنها لم تفلح سوى بإبعاده أكثر.

_ هل ستعد لي العشاء الليلة ؟

_ هل وعدتك بذلك ؟

ضحكت وهي تخبره : ليس تماما.

نظر إليها مطولا ثم أخبرها بأنه سيفعل، والليلة سيفتح زجاجة نبيذ على شرف حضورها منزله لأول مرة.

_ لكني لا أشرب. قد أفعل الليلة.

كانت تعد نفسها بكثير من الأمور. بقبلة وربما علاقة جسدية كاملة وفطور متأخر. حين وصلت منزله، شاهدا فيلما هوليوديا بعد أن فتح زجاجة نبيذ أحمر تبدو غاليةالثمن، بدا كلاهما متوترا لما قد يحدث لاحقا. شاشة التلفزيون الكبيرة تزين

عرض الحائط، عيناهما مسلطتان على الشاشة، هما لا يشاهدان الفيلم بل يتظاهران بمشاهدته، مجرد تظاهر بالهدوء قبل حدوث العاصفة أو حدوث اللاشيء.

الاستوديو الذي يعيش فيه، صغير يناسب الشاب الأعزب. غير منظم، حيث تجد فردة واحدة من حذائه أمام باب المنزل والأخرى في المطبخ الصغير المفتوح على الصالة الصغيرة أو ملابس داخلية مرمية على الأرض لم ينتبه إليها وبمجرد انتباهه رفعها بسرية تامة، وجاكيت ارتداها في ا لي و م السابق مازالت في الصالة تتكور بجانب المقعد.

في عتمة الليل، الفيلم ما زال مستمرا على الشاشة، وبعض خطوات أقدام تتحرك في الشقة التي تقع في الطابق الأعلى من شقته وهما صامتان كالحجر. المنازل هنا تبنى من الخشب فيسهل سماع الخطوات والتنهيدات والشجارات بين الجيران ،بدون خصوصية للحميميات الليلية.

بعد انتهاء الفيلم، وانتهائهما من شرب زجاجة النبيذ كاملة، وفتحه لزجاجة أخرى ،لم يتفوه سوى بسؤال واحد : المزيد من النبيذ ؟ لدي نبيذ أبيض.

وافقته بطأطأة من رأسها.
رغم بساطة المكان الذي يقطنه، وبساطة المفروشات التي يستخدمها، إلا أنهيقتنى أفضل أنواع الخمور، فلن يجد السارق هنا شيئا قيما سوى هذه المشروبات الروحية.

امتدت يدا برونو على كتفيها، فلم تمانع. بدأت يده تتحرك على كتفيها وذراعيها وكأنه يتحسس شيئا ثمينا.

في وقت لاحق من الليل، اقترح عليها النوم في شقته ووافقت. حين صعدا على السرير المتوسط الحجم، اقترب منها ليقبلها، أزاحت رأسها، فوقعت القبلة على رقبتها.

الخمر جعلها تشعر بالنعاس الشديد.

قالت هامسة : أنا نعسة جدا

لفها بذراعيه، فنامت كطفل صغير أنهكه اللعب.

بعد الفجر بقليل شعرت بالسرير يهتز، بدأت تستيقظ رويدا رويدا، لم تتمكن من رؤية برونو بجانبها بسبب العتمة، كما أن الستائر تحجب الضوء من أن يتسلل داخل الغرفة. شعرت بيديه تتحركان في المنطقة السفلية من جسده. ما هي سوى لحظات حتى سمعت صوت فتاة تتنهد أثناء ممارستها الجنس مع نفسها أو مع أحد ما في الشقة المجاورة، مر وقت وهي تتنهد مستمتعة بدون أي صوت آخر غيرها ،العزل السئ بين هذه الشقق يساعد في سماع أدق التفاصيل. تمكنت بعد عدة دقائق من سماع صوت الفتاة لحظة دخول العضو الذكري حيث تزداد تنهدات الفتاة ارتفاعا، مما بدا لمريم وكأن الجميع يسمع هذه العلاقة الجنسية التيتحدث. على مرأى من الجميع.

تجاهلت برونو وممارسته العادة السرية بجانبها. بدا وكأنه توقف قبل الانتهاء ،لذلك لم يتمكن من النوم طوال الليل وقد شعرت به.

مر الأسبوع كاملا قبل أن تتلقى مكالمة من برونو، شعرت وكأنها خسرته بعد لقائهم الأخير حيث دعت نفسها إلى منزله، أعطته آمالا كبيرة بحدوث شيء ما.

شربا النبيذ كما وعدها، وتسامرا قليلا، كانت يده رقيقة جدا على جسدها، رقيقة لدرجة أنها شعرت بيديه تدلكان جسدها لتسترخي في مكانها ،يداه لا تثير جسدها ،تقبلت لمساته لكنه لم يثرها مما جعله يشعر بالخذلان والإحباط. لم تصرح حينها بأن هذا إنجاز كبير؛ أن تتقبل لمساته دون نفور، دون أن تمتد يدها إلى وجهه، أو تدفعه عنها بقسوة، بل استكانت في مقعدها، يداه تلمسان كل ما تجدانه.

عدم اتصاله أشعرها بالخيبة، شعرت بحاجة لرؤيته فهي لم تتأثر برجل منذ تأثرها بأستاذها الجامعي وهي صغيرة. رفعت سماعة الهاتف منذ دقته الأولى، رغم أنها تجاهلت اتصالات كثيرة في الماضي، لم تشعر برغبتها في الإجابة.

برونو : بلجيكا تنعم بطقس جميل ليومين، هل تريدين الخروج؟

مريم : فعلا؟

برونو : فعلا.

قبلت دعوته للذهاب إلى شاطيء ليلسبيرغن )جبال ليلس( قرب مدينة تورن هاوت في فلاندرز، تم إنشاء هذا الشاطئ عن طريق استخراج الرمال لبناء الطريق السريع، تم بناء مخيمات وألعاب مائية ترفيهية حول هذا الشاطيء لقضاء فصول الصيف والأيام المشمسة.

لم يسمع اللهفة في صوتها حين أجابت بالموافقة. ظن قبولها مجاملة وليس رغبة في قضاء الوقت معه. قرر أن يفهم منها بعض الأمور، لذلك سيطرح الموضوع بشكل واضح وصريح بمجرد رؤيتها.

لم تتوقع مريم أن تقضي أكثر من الساعة لتصل إلى الشاطيء الصناعي ليلسبيرغن، ندمت أنها لم تقبل دعوته بالذهاب معا في السيارة، مقررة الذهاب بمفردها هناك لملاقاته.

وصلت إلى الواحة الخضراء المحاطة بشاطئ جميل بعد أن اشترت تذكرتها بأربعة يورهات، اتجهت يسارا فرأت شاطئا قليل العمق مكتظا بالعائلات مع الألعاب المائية للأطفال. أيقنت بأنها لن تجد برونو في هذا الجانب. عادت أدراجها متجهة نحو اليمين، مقررة أن تبحث عنه، لكن الشاطيء بدا مكتظا بالناس فاستسلمت للأمر واتصلت به.

تعلقت عيناه على جسدها الطري وهي ترتدي ملابس السباحة، رأت النيران تلمع في عينيه.

اقتربت منه ووضعت قبلة على خده الأيسر وهي تهمس : دعوتك إذا ليست بريئة

برونو : بدأ بمساعدتها بوضع الغطاء على الأرض، ثم سألها : ليست إذا ؟

أجابته وهي ترفع حاجبا واحدا : أليس المقصود هو التمعن بجسدي بملابس السباحة ؟

برونو : بل الطقس الجميل. لا يعني أني لست مغرما بجسدك.

احمرت وجنتاها قليلا، لم يكن ليفوت برونو هذا التورد في وجنتيها.

عادة ما تستقبل هذا الكلام باستهزاء، لكنها شعرت به مصمما وحادا أكثر من أي مرة تقابلا فيها.

جلست على الأرض وبدأت بوضع كريم الشمس على جسدها : جعل ت الأمر واضحا منذ التقينا أول مرة.

_ مازلت أندم بأني لم أقبل عرضك تلك الليلة.

بدا وكأنه يحُدث نفسه : عارية !

ثم استطرد : بالطبع تعرفين أن جسدك منحوت بطريقة مستفزة

_مستفزة برونو ؟

_ لكي يقُبل !

أخفضت رأسها وتظاهرت بانشغالها بوضع الكريم على جسدها، لم تصل يداها إلى الظهر، فالتقط من يدها الكريم لمساعدتها، لم تعترض، بل استسلمت للمسة يديه على ظهرها صعودا وهبوطا، بدا وكأنه أخذ وقتا طويلا أكثر مما يجب.

_ هل وضعته بشكل لائق !

استلقت على الأرض وهي تخفض قبعتها وتضع نظارات الشمس.

استلقى بجانبها، بدا مستغربا هدوءها غير المعتاد، اعتاد إجاباتها المستفزة والغاضبة والمستهزئة. لكنها بدت مختلفة بهدوئها، خجلة ومستسلمة.

لم تنظر إليه ولكنها سألته بصوت واضح لكي يسمعها : لماذا اتصلت بي مجددا ؟

_ لا أعرف.

_ الرجل أينما كان وأينما ولد يحب أن يصطاد !

_ أعرف أنك لا تمثلين دورا صعب المنال.

_ لا ؟

_ قرأت عن ديانتك قليلا وعن العادات في تلك البلاد، ربما سأفهمك أكثر.

نظرت إليه رافعة نظارة الشمس لتنظر إلى عينيه : ماذا فهمت ؟

_ هل تريدين حقا معرفة ذلك ؟

_ لا أعرف.

_ مريم ؟!

_برونو !

_هل تريدين أن تخوضي التجربة معي؟ سأكون صبورا معك، سأتفهم اختلاف الثقافة، وسأتفهم رغباتك، لكن ما أريد معرفته، هل ستسمحين لي بالتقرب منك ؟

بعد لحظات من الصمت، نهضت ورمت بجسدها في المياه، لم تلبث في الماء سوى دقيقة، المياه باردة كالجحيم، رغم سطوع الشمس وحرارتها الشديدة.

عادت ترتجف كقطة مبتلة، التقطها بين ذراعيه، لم تعترض ثم نظرت إليه : موافقة.

قبَّل جبينها وأعطاها منشفة لتجفف نفسها قليلا.

**مــها**

وقف ت بعيدا عن الساعة المعلقة في صدر الشارع التي كانت سابقا جزءا من محطة القطار التي سميت باسم " ليوبولد الأول " تشريفا للملك البلجيكي الذي تم

تخيره ما بين بلجيكا واليونان وقد فضل بلجيكا في عام 1831. محطة القطار كانت من أوائل محطات القطار التي أنشئت في أوروبا، وهذا الجزء المتبقي يتم مشاركته حاليا ما بين البرلمان الأوروبي والحكومة البلجيكة في ساحة لوكسيمبورج بمدينة بروكسيل. تكتظ هذه المنطقة بالأجانب من حاملي جواز السفر الأوروبي الذين يعملون بالبرلمان، الساحة تمتلئ بالعديد من البارات المنتشرة على طول الجانبين الأيمن والأيسر من الساعة الضخمة التي تعطي قليلا من الغطرسة لهذه المنطقة، اختبأت مها بجانب محل أسيوي مكتظ بالمهتمين بشراء وجبة الغداء في هذا الوقت من اليوم حيث يخرج كل من الموظفين إلى فسحة قصيرة لتناول وجبة الغداء، أو ليقابل زميلا أو صديقا لبرهة قصيرة من الوقت في أحد هذه البارات.

اتفقا أن يلتقيا ما بين الساعة الواحدة والنصف والثانية من ظهر يوم الخميس ،بدأت تقترب الساعة من الثانية ظهرا حيث بدأ يهرع الموظفون إلى مكاتبهم لمتابعة العمل.

خف الازدحام فاستطاعت رؤيته يقف أسفل الساعة منتظرا، ينظر في جميع الاتجاهات، تأملته بشوق كبير وكذلك بكثير من الخوف، فقد مرت عدة سنوات من الغياب. وقفت في مكانها لا تقدر على التحرك، تشعر بالحرج الشديد، حتى رن هاتفها الخلوي، فأجابت.

_ مها، أنا أقف هنا أمام الساعة ،بانتظارك منذ نصف ساعة.

_ آسفة علي !

_ لا تخبريني بأنك لن تأتي !

_ أتمنى ألا تغضب مني.

حين أقفلت الخط، شعرت بالندم الفوري، وقررت أن تتصل به مجددا، أو تتقدم إليه قبل أن يذهب. لكنها لم تتمكن من أن تفعل شيئا، اختفى رويدا رويدا من أمامها دون أن تراه، وهذا جعلها تشعر بخواء كبير في معدتها.

بعد ذهابه تقدمت نحو الساعة لتقف في نفس البقعة التي كان يحتلها بجسده قبل مغادرته، تحاول أن تلمس وجوده في المكان، لكن هذا لم يساعدها.

بدا لها أن الجميع غير مبال، كل منهم مشغول بأفكاره أو بإنجاز مهمة معينة ،لكنها عادت لتلوم نفسها على هذه الأفكار، لابد أن هناك أمورا تشغل بالهم ،فالمظاهر خادعة.

مر يومان على اللقاء الذي لم يحدث، لم تحاول الإتصال به، ولا هو أيضا. مر هذان اليومان بشكل ثقيل وقاس، شعرت بوجع لا يبارح جسدها أو قلبها، لاحظ تامر تعاستها، فاقترب منها جالسا على السرير. مها مشغولة بمراقبة هاتفهاالمحمول ولم تنتبه إليه، شعرت بيديه الصغيرتيين تسقطان حولها ليغمرها بعناق وهو يقول : تعرفين بأني أحبك.

ضحكت من قلبها وهي تجيبه : لكن هل تسامحني إن لم أنتظرك حتى تكبر؟

صمت للحظات ليخبرها لاحقا : سأحزن ولكنني سأتفهم

ضحكت بصوت عال وهي تقول : سارة أنجبت رجلا كبيرا فعلا!

نامت مها على سريرها بعد أن أنهكها التعب، وحين استيقظت سمعت بعض الأصوات القادمة من الصالة، حين همت بالخروج استوقفها صوت مريم تقول :

لكن يا سارة، على مها أن تتحدث إليه مجددا، فقد تركته سابقا، هو خائف من أن تخذله مجددا، عليها أن تتشجع وتكسر الرهبة داخلها.

سمعت سارة تؤكد على كلامها : أنا أراهن بأنه ينتظرها لتتحدث إليه.

شعرت مها بالأمل يعود إليها مجددا، غسلت وجهها والتحقت بهما في الصالة ،هذه المرة لم تنتبه إلى ملابس مريم أو حتى تنتقدها داخلها كما اعتادت أن تفعل ،لكن مازالت الأمور بينهما غير حارة كذلك.

قرر ت أن تهاتفه مباشرة، مفضلة ذلك على إرسال رسالة له، رفع سماعة الهاتف بعد الرنة الأولى.

_ أعرف بأنني تأخرت عليك

_ عن ماذا؟

_ الاتصال، لكنني كنت...

_ آسفة

_ لماذا تعتذرين ؟ أليس أنا من عليه الاتصال ؟

_ علي أن أتعلم كيف أواجه الصعوبات، وألا أختبئ مجددا. أنا من وجب عليه الاتصال.

_ هذا كله لا يهم، متى سنتقابل؟

_ غدا ؟

اتفقا على اللقاء ووعدته بأن تفي بوعدها هذه المرة.

ارتدت فستانها الأبيض، لم تستقل الباص للذهاب إلى موعدها، بل اختارت أن تذهب سيرا على الأقدام، خرجت مبكرة جدا، لم تستطع الانتظار بغرفتها. بدأت تضيق بها، فانطلقت نحو الشارع والأفكار الجميلة تداعب المسامات بكامل جسدها، من بداية خصلة الشعر في رأسها حتى أصابع قدميها. وصلت إلى المكان مبكرة، وقفت تنتظره، لم تتحرك من مكانها حتى رأته يقترب منها قبل أن يلمحها.

كانت تقترب منه بخطوات سريعة، والرياح الباردة تحرك شعرها، وما هي سوى لحظات حتى رأى خطواتها الواسعة نحوه، عينيها المتسعتين من الشوق، وثوبها الأبيض الطويل بالدانتيل الجميل، تزف إليه بعد هذا الغياب، كانت كلمة " مرحبا " على شفتيه وقبل أن ينطق الكلمات كانت قد رمت برأسها على كتفه، مرت ثانية من الصمت بينهما، ثم بدأت بالبكاء، لم يعرف ما عليه فعله، أربكته دموعها ،أربكه العناق المفاجئ، أربكه صوت الحزن في دموعها المتساقطة على كتفه، لا يراها لكنه يشعر بتلك القطرات تسقط على جسده لتحرقه، كأنها تخُرج وجعاكبيرا من داخلها. صمتت فجأة وقد هدأت، لترفع رأسها وتنظر إلى عينيه هامسة :

الآن أنا سعيدة!

كانت هذه البداية بالنسبة لهما، كانت البداية الحقيقية لها منذ قدومها إلى بلجيكا ،ابتسامتها الأولى وسعادتها الأولى وأملها الأول.

## سـارة

لقاء سارة المفاجئ بلور، مثير للاستغراب، كيف لامرأة غريبة أن تتعلق بشخص لم تتحدث إليه ولو لمرة واحدة، أن تستثمر وقتها لت حضر كل الفعاليات الفلسطينية في سبيل رؤيتها. عدة شهور من البحث وعدم الكلل، لأنها آمنت بفكرة، ظنا منها بأن وجود سارة بحياتها قد يعينها لتفهم حياتها.

في البداية كان صعبا على سارة أن تفهم الهدف، وأسئلة كثيرة دارت برأسها لكنها لم تتمكن من طرحها، فقد بدت لور متشوقة للحديث، أخبرتها أمورا لم تتجرأ يوما أن تخبرها لنفسها، أخبرتها القصة منذ اتخذت قرارها بدراسة اللغة العربية، ثم زيارتها لفلسطين، ثم لقائها بعمر، ثم عودتها إلى بلجيكا وزواجها، ثم مرضها بسرطان الثدي وفقدان شعر رأسها وعلى أثره فقدت زوجها، ارتداءها الحجاب وخسارة عملها وتوماس، لأنها لم تخبر أحدا بالسبب الحقيقي، أرادت منهم أن يحترموا قرارها دون أن يحُكم عليها، أن يحترموا خصوصيتها وقرارها. ومن ثم أخبرتها عن نادية وهدوئها والكثير عن توماس الذي يرفض أن يكون جزءا من الشرق الأوسط !

شعرت سارة بأن لور تمر بمرحلة حساسة في حياتها، فما واجهته في الآونة الأخيرة لم يكن هينا، مرض خبيث وطلاق وتربية مراهقين، شعرت بأنها لو لم تجدها لور لتفضفض لها، كانت حتما ستجد شخصا آخر مناسبا؛ يمكنها أن تفتح قلبها له كليا، فهي بأمس الحاجة إلى شخص يتفهمها يستمع لها بقلبه وليس بأذنيه.

الطلاق من زواج دام سنوات طويلة؛ وضعها أمام مفترق طرق وعليها أن تختار، ويبدو أن الاختيار صعب.

لور : نحن لا نختار أين نولد، توماس لا يفهم هذا.

سارة : يحدث أن ترفض مجتمعا، وقد تكتشف بأنك جزء منه !

لور: المجتمع الأوروبي لا يرى من الشرق الأوسط إلا الحروب، والفقر ،والهجرة. في حين هناك أمور كثيرة لا يراها إلا من يعيش هناك ،ولكي يصبحوا من هذا المجتمع، لابد أن يكونوا جزءا منه.

جلستا في البار الإيرلندي القريب من المفوضية الأوربية. لور بدت مبتهجة ومتحمسة من لقاء سارة، وقد تحدثت إليها وكأنها تعرفها منذ سنين طويلة، وسارة استقبلتها بنفس الحرارة. تجلس لور بحجابها وسارة مقابلها بشعرها القصير ،حيث طلبت لور البيرا العادية وطلبت سارة كأسا من العصير.

لوحة فنية لامرأة بلجيكية بغطاء للرأس تجلس على خشبة البار وبيدها كأس من البيرة، وعلى يمينها سارة غير المحجبة بكأس من العصير ،بدا النادل الإيرلندي مستغربا ولم يمنع نفسه من التعليق : اعتقدت بأن الخمر حرام !

ضحكتا على هذا التعليق الذي بدا تأكيدا على كلامهما وعادة الناس بالحكم على الآخر.

منذ اللحظة الأولى التي تصافحتا بها، شعرت سارة ببعض الحميمية وكأنها تعرفها، رغم أنها لا تنسى الوجوه أبدا، متأكدة بأنهما لم يتقابلا من قبل. لم ينتبها إلى وجود شروق حتى لحظة اختفائها.

منذ ذلك اللقاء لم تنقطعا عن الزيارة، وبدا تامر وكأنه استبدل غياب مها بوجود لور. ونسيت سارة تطبيق التعارف "تندر" ولم تخرج في موعد غرامي مع أي من المهتمين، ولم تتلق الإعجاب من معجبها السري كما تمنت وانتظرت طويلا. بعد

فترة من الوقت نسيت الأمر كليا وقد استبدلت هذا الفراغ بحياتها بوجود لور الذي يستكملها.

كلتاهما لا تدخنان، لكنهما قررتا زيارة أمستردام. تبعد المدينة ما يقارب الساعتين والنصف من بروكسيل، بدت كفكرة مجنونة من سارة.

_ لم أجرب تدخين " الحشيش " سابقا

_ جربته حين كنت صغيرة جدا. يمكننا الذهاب إلى هولندا ونستمتع بسيجارة

ضحكت سارة من الفكرة : لم لا ؟!

استقلتا باص فليكس، الذي ينقل المسافرين بين الدول الأوروبية بأسعار أكثر من مناسبة وخاصة لمحبي السفر بأسعار رخيصة، حجزا تذاكر رحلتهما من بروكسيل محطة القطار الشمالية " نورد " إلى امستردام ببضعة يوروهات ،استقلتا الترام من المحطة حتى وصلتا إلى مركز المدينة. لور بحجابها وسارة بشعرها القصير، تسيران نحو الشوارع الضيقة مكتشفتين بعض الأماكن، توقفتا عدة مرات لتنظرا نحو الفاترينا التي تقف خلفها تلك الفتاة بلبسها الأسود الجلدي من قطعتين خفيفتين لا يغطيان الكثير، وبجانبها فتاة أخرى ترتدي الجينز والجزءالعلوي من جسدها عار تماما، والفاترينا المجاورة تستعرض فتاة أخرى بجسدهاالممتلئ جدا.

علقت سارة : هنا تجدين كل الأذواق.

أكدت لور: بالفعل، الشقراء والسمراء والحمراء والنحيفة والممتلئة نوعا ما والممتلئة جدا. تفاوت جميل.

بعد عدة خطوات، كان هناك لوحة تؤكد ما قالته لور بأن غايتهم إرضاء كافة الأذواق، حيث تقف ثلاث فتيات بنفس الفاترينا، بملابس رقيقة جدا حريرية، بدا صعبا على كلتيهما النظر بعيدا عن الفتيات الثلاث. نظرت واحدة منهن إليهما وأشارت بيدها محاولة إبرام اتفاق، في أخذهما سويا. نظرا إلى بعضهما البعض للحظات قليلة ومن ثم استمرا في السير بعد أن علقت لور: ربما في مغامرتنا التالية !

ضحكت سارة بصوت مرتفع لفت إليها بعض المارة، لكنها لم تهتم قيد أنملة بهذا الاهتمام، وأطلقت ضحكتها عاليا أكثر.

نظرت لور إلى سارة متوقفة عن السير، مرتكزة على الجسر الصغير فوق نهر الأمستل، حيث يقف السياح لالتقاط بعض الصور التذكارية، نظرت إلى عينيها قائلة : حين رأيتك أول مرة تتجادلين مع صديقك ...

_ أتجادل؟

ضحكت لور وهي تصحح : أحيانا يصاب الشخص المقابل باللبس معك، حيثتبدين منفعلة جدا حين تتورطين عاطفيا ،ليظنه الشخص المقابل جدالا.

استطردت : رأيت فتاة تشبهني ولا تشبهني، بل فتاة تمثلني وقلت لنفسي في وقتها " لا يتم قبول هذه الفتاة في العمل بسبب عدم ارتدائها الحجاب، في حين يتم رفضي من العمل بسبب ارتدائه. هي رُفضت من مجتمعها وأنا رُفضت من مجتمعي رغم أننا نعيش داخل المدينة نفسها، كلاهما متشابهان، يفرضان علينا ما يحتاجانه،

يصدران إلينا ما يريدان منا أن نصبح عليه، ولا يسمحان لنا أن نكون على ما نحن عليه. "

لم تنطق سارة بحرف واحد، فلم تشعر يوما بأنه يمكن للور أن تمثلها، خاصة فتاة أوروبية لديها مساحة كبيرة من الحرية، تولد بها، وتستمتع بها، لا تعيش سلطة الأخ أو المجتمع كما تعيش الفتاة العربية. لا تختار حياة لا تناسبها بسبب والديها ،كيف يمكن أن تكون شبيهة لها؟

_ تأثير الكعكة بدأ عليك قبل أكلها ! هل سنذهب لتدخين السيجارة؟

ضحكتا وتجاهلتا الأمر ولم تصمم لور على التحدث بجدية حيث تجاهلت سارة ذلك مصممة على الضحك والفرح.

كان هناك عدة خيارات لتناول سيجارة المارغوانا التي تواعدا على شربها، حيث يسمح في هولندا بتجارة المخدرات الخفيفة والتدخين في الأماكن العامة كما يمكن الجلوس في المقهى وطلب السيجارة كما لو أنك تطلب كأسا من الشاي، حيث يسمح بالتدخين في أماكن خاصة لبيع هذا النوع من السجائر الملفوفة عادة بالحشيش أو الماريغوانا المستخرجة من نبات القنب بما لا يزيد عن خمسةجرامات لليوم الواحد وما يزيد عن ذلك يعد غير قانوني. ابتدءا بأكل كعكةمخبوزة بنوع خفيف من المخدرات الخفيفة. لم يشعرا بشيء. تنقلتا بين الشوارع على ضفاف نهر الأمستل والأبنية تمتد على طوله بصورتها الحالية الحديثة، فيما كان سابقا يمتد على ضفافه قرية صغيرة لصيد الأسماك حتى القرن السابع عشر فأصبح من أهم الموانئ في

العالم. تعتبر هذه المدينة الحديثة نوعا ما عالمية حيث تكتظ شوارعها بمختلف الجنسيات.

**مـــريم**

ارتدت فستانها الأخضر الذي ينسدل بخصر ضيق متناسب مع تناسق جسدها ،بأكتاف عارية، وقد رفعت شعرها الطويل في كعكة فوق الرأس، مع نظارة شمسية بيضاء تتناسب مع النقشات البيضاء الخفيفة في الفستان.

اتفقت مع برونو أن يلتقيا في وسط المدينة بعد أن تنتهي من بعض الأعمال، أمام مبنى لا بوخس، حين وصلت هناك، لم تجده فاستغربت، عادة ما يصل إلى الموعد مسبقا، ما هي سوى ثوان، حتى تقدم منها شاب صغير يبلغ السادسة عشرة، سألها بلطف : أنت مريم؟

نظرت إليه مستغربة : أجل؟

مد يده إليها برسالة مغلقة، تناولتها وهي تسأله : ما هذه ؟

لكنه اختفى بمجرد أن ناولها الرسالة، وتركها حائرة في أمرها.

_ هل هي رسالة عتاب وهجر؟ هل مل برونو من تصرفاتي غير المنطقية، لابد وأن أتعبه جنوني.

ترددت في فتح المظروف، لكنها قررت أن لا تؤجل الأمر المحتوم ، كل ما وجدته ملاحظة صغيرة كتبت بخط اليد " قابليني في سان جيري".

ما دار بخلدها : لماذا لم يرسل لها رسالة عبر الهاتف ؟ تذكرت بأنها عادة ماتنسى هاتفها مغلقا ،فكثيرا من المرات لم يتمكن من الوصول إليها بسبب ذلك. لايحب عادتها هذه ولكنها لم تتغير، لا تقصد أن تجرحه ولكنها لا تفهم كيف يمكنها أن

تكون أكثر مسؤولية، تفهم بأنه يشعر بالقلق وليس شعورا بالسلطة، لكنها داخليا ترفض هذا الشعور بالانتماء إلى شخص ما.

سارت بخطوات ثقيلة نحو السان جيري، وقد قررت أن تفتح قلبها أكثر، هذه ليست المرة الأولى التي تقرر بها ذلك وتفشل، لكنها لا تريد أن تخسر برونو من حياتها.

رأته يقف هناك بجاكت لونها أزرق فاتح، مع جينز أسود، وبدا نظيفا، حليقا ومختلفا تماما عن أي مرة رأته بها، بدا مهندما على غير العادة، استطاعت أن ترى بعض الجمال بملامحه بعد أن استبدل اللحية الطويلة بلحية قصيرة.

ينظر إليها بتركيز، فارتبكت بخطواتها، ابتسم فشعرت بالخجل، شعرت وكأنه يتلصص عليها.

انتظارها هناك لم يشعرها بالراحة، أخذ يدها وتبعته نحو الطاولة التي اختارها.

_ حين لمحتك أول مرة، كنت تجلسين على هذا المقعد، منذ تلك اللحظة حياتي تغيرت ...

_ برونو ...

لم يلتفت إليها واستكمل : طلبتك للرسم ورفضتِ، لكنني فعلت لاحقا.

رأته يخرج لوحة مخبأة، أدهشها أن ترى روحها عارية بهذا الشكل، ملامح الوجهلا تشبهها.

_ لا تشبهني !

_ هذه أنت، روح مريم.

صمتت، هل يمكنها المناكفة أكثر، هذه ليست الصورة التي تريد أن يراها بها من حولها.

قطع برونو صمت اللحظة : تشبهينها بالخجل، بارتباك الطفلة التي تتعرف على الحياة لأول مرة، تشبهين فاكهة ناضجة قاسية ولكنها لذيذة الطعم.

أخرج من جيب سترته علبة صغيرة، فتح العلبة ونظر إليها: ربما الخاتم بسيط وليس غاليا، لكنني أريدك زوجة !

ارتبكت ولم تفهم، نظرت من حولها خشية أن تكون مراقبة من الناس.

همست : برونو هل أنت مجنون ؟ لم نتبادل القبل ولو مرة.

حين وصلت مريم منزلها بكت بحرقة. رفضها لطلبه أشعرها بالتعاسة، لا يمكنها أن تنسى نظراته، رغم تأكيده بأن طلبه كان مجازفة.

لم تخبر أ يآ من صديقاتها عن الأمر، حتى والدتها التي شعرت وكأن هناك شيئا ما يحدث، إلا أنها تجنبت التحدث عن الأمر كليا، وتجنبت التفكير به كذلك. منذ تلك اللحظة لم يبادر برونو لمقابلتها.

مر شهر كامل على غيابه من حياتها، تأقلمت على بعده، وبدأت الحياة تشغلهامجددا.

حبيبها العراقي هاتفها معلنا عن قدومه مجددا، لكنها أخبرته بأن عليه أن يبذل مجهودا أكبر لملاقاتها، بعد خيبتها في اللقاء الأخير. وعدها بذلك، فانتظرت منه الوفاء بهذا الوعد، وانتظرت لقاءه بكثير من الترقب والخوف.

كانت معه تقاوم ضعفها دائما، لذلك اضطرت أن تصارع نفسها ومن حولها دائما. بصحبة حبيبها العراقي شعرت بالحب الكبير، والضعف الكبير، والخوف الكبير ،وتأنيب الضمير، معه شعرت بالحب يأتي بخفة وبقوة وظنت أنها أحبت نفسها معه كليا لتكتشف لاحقا أنها تكره هذه الذكريات، تكره ضعفها السابق، وهذا جعلها تكره نفسها.

تواصل معها بشكل روتيني حتى اقتراب موعد سفره، محاولا تجنب سوء التفاهم الذي حدث أول مرة، لم يتفقا على مكان الالتقاء، لكنه يعرف المدينة قليلا ويعرف كيف يتنقل فيها مستخدما المواصلات العامة. لذلك اتفقا أن يلتقيا قريبا من المركز، وذلك لقرب النزل الذي يقيم به حاليا.

حدث وأن زار بعض الدول الأوروبية، حيث تمت دعوته من قبل بعض الجامعات هنا؛ لتقديم بعض المحاضرات عن الأدب العربي، إجادته لكل من اللغة الفرنسية والعربية ساعدتاه في أن يكون أستاذا جامعيا متميزا.

مريم بدت حائرة في الذهاب إلى هذا الموعد الذي تم إبرامه. اتفقا أن يتقابلا على الساعة السابعة مقابل محطة القطار الرئيسية في بروكسيل. بدأت الساعة تقترب من السادسة ولم تقرر بعد، هل تخذله كما فعل في المرة السابقة، أو أن تقرر الذهاب وتراه، وتنتهي من هذا الأمر. خطر برونو ببالها. شعرت بقليل من الحزن حين مر طيفه في بالها حيث لم يتواصلا منذ فترة، لم يحاول التحدث إليها مجددا ،وكذلك هي لم تفعل احتراما لمشاعره، لكن من حين إلى حين تشعر بالحنين، لكنها تخطت مرحلة الخوف، لأنها خسرته بالفعل حين رفضت عرض الزواج.

خرجت من المنزل متأخرة، حين وصلت لم تجده ينتظرها رغم تأخرها عن الموعد، وقفت في مكانها تنتظر حبيبها السابق، بينما تقف في الشارع منتظرة؛ تذكرت آخر مرة جاءت إلى هذه المحطة بغرض لقاء برونو، حيث وجدته هناك ينتظرها مبكرا، أصابتها غصة، هو لا يهتم بلقائها كفاية، حين قررت أن تغادر المكان، رأته هناك يقف مراقبا إياها.

اقترب منها ببطء شديد أوجع قلبها، وحين تواجها، رفع يده للسلام، مقبلا وجنتيها ،ثم أخذها بين ذراعيه لبرهة من الوقت. سارا جنبا إلى جنب ،هي صامتة كالجدار، تحسب الأمور في رأسها، في حين هو يتحدث بلا انقطاع عن رحلته حتى وصوله إلى مطار زافنتم بروكسيل.

باغتها بكلمة: توحشتك.

لم تجب، وحين شعر بصمتها الذي طال : ألم تشتاقي؟

نظرت إليه لبرهة من الزمن : بلى.

واكتفت بهذه الإجابة الصغيرة، حيث استطرد هو حديثه عن فرنسا وجمالها ،وجمال الجنوب رغم تقلب الطقس أحيانا هناك، استمعت إليه وهو يقول : ما أجمل أن تكوني عارية تماما مع الطبيعة. جملته هذه طرقت بعض الذكريات في رأسها.

حدثها برونو عن تجول رواد شاطيء كاب داغدي عراة وأن هذه طريقتهم في التناغم مع الطبيعة، حيث يعتبر من أكبر شواطيء العراة في أوروبا. هو يحدثها عن العراة وحرية الشخصية في أوروبا، تذكرت برونو وما أخبرها به عن هذا الشاطيء الذي يقع في جنوب فرنسا، وتجربته، حيث سافر مع عائلته وهو ابن

الثالثة عشرة، تجربة لم يكن من السهل التحدث عنها، لكن مريم استدرجته للتحدث عن الأمر بتفاصيله، اعترف بأنه لم يحب هذه التجربة، ورغم ذلك فعلها لأكثر من مرة بصحبة عائلته، لا ينسى صوت الكريكيت الذي يصدح بالجنوب وكأنه آلة شفاط لا تتوقف عن العمل، اعتقدها آلة ما لصغر سنه وجهله، شرحت والدته عن هذه الحشرة التي تنتمي لفئة الصراصير الطيارة التي تنتشر تقريبا بكل مكان وتتغذى على اليرقات ومسكنها الأشجار. محاولا التجنب عن التحدث عن تجربته عاريا كليا مع عائلته، تكلم كثيرا عن الكريكيت حتى شعرت بالقرف ولكنها لم تنس أن تدفعه للتحدث عن شاطيء العراة، أخبرها بأنه لم يحب هذه التجربة حيث رأى فتاة تتسلق بعض الصخور المترامية على الشاطئ، تسلقها عارية مكنه من رؤية تلك التفاصيل الصغيرة بجسدها، شعر برجولته تستيقظ علنا أمام الجميع مما وضعه في موقف محرج جدا، وحاول أن يخفي ذلك بقدر ما استطاع ومنذ ذلك اليوم لم يحب هذا الشاطيء.

سألته مريم في حينها : كم تبلغ هذه الفتاة من العمر ؟
_ فتاة شابة.

لكنها ألحت : لم تلفتك فتاة أقل منك عمرا أو بنفس العمر؟

ضحك مجيبا : عادة لا تجدين الصبي ينجذب للفتاة التي لم ينضج صدرها بعد.
ضحكت يومها وهي تتخيله طفلا صغيرا يكتشف رجولته علنا. شعر بالحرج وهو يرى وجهها والضحك المستمر من قبلها لا يتوقف، وعدته بالتوقف عن الضحك؛ إن أخبرها قصة أخرى.

سمعت حبيبها العراقي يقول : أتمنى أن أكون سببا لهذه الابتسامة على وجهك.

ردت عليه بحيادية : تذكرت موقفا طريفا مع صديق.

_ صديق أو حبيب ؟

نظرت إليه وهي تسأل : هل هذا يهم؟

جلسا داخل كافيه، هو تناول قهوة إيطالية، فيما اكتفت هي بشرب الماء.

في الطاولة المقابلة منهما يجلس شابان في مقتبل العمر، شاب أسمر بجسد رياضي يجلس على الجهة اليمنى من امرأة خمسينية لديها بشرة بيضاء وشعر أصفر مصبوغ، تضع الكثير من المكياج، وبجانبه يجلس رجل بنظارات طبية ،جسد عريض، للوهلة الأولى تظن الحميمية بين المرأة الخمسينية والشاب غريبة ،لكن مناداته لها ماما يوضح الأمر، ما لفت مريم بأن الشاب يبدو مختلفا كليا عن أمه، هو لديه بشرة سمراء بملامح البحر المتوسط، فيما هي تحمل ملامح أوروبية.

ما هي سوى دقائق حتى انضمت إليهم فتاة شابة مع رفيقها الأشقر. بدا منسجمين وهالة من الرومانسية تحيط بهما، سلما على من يجلس على الطاولة. المكان هادئ بعض الشيء، لذلك تمكنت مريم من أن تسمع القليل من محادثتهم، وربما تركيزها على هذه الطاولة بالذات، لخلو الكافيه من الناس تقريبا. ما لاحظته مريم أن هذين الشابين يبدوان مغرمين بتلك الفتاة، بينما هي مغيبة كليا عن هذه الحقيقة أو قررت تجاهل ذلك. انشغلت مريم بمراقبة آخرين، حيث بدا المكان يكتظ بالناس رويدا رويدا. حين عادت إلى المنزل، شعرت بالحرية، شعورها بالنفور اختفى ،وشعور الحب لم يعد موجودا، ودعا بعضهما دون أن يتفقا على لقاء آخر رغم أنه سيقيم

شهرا كاملا في مدينتها. أدركت أنها أقنعت نفسها لوقت طويل بأمور ليست حقيقية، ومارست حياتها تبعا لها، لقاؤها بحبيبها السابق أعادها على الطريق ،كان ما يزال جذابا حين يتكلم، لكنها لم تره وسيما كما اعتادت، لم تشعر باللهفة ،لسبب ما لم يبرح برونو تفكيرها.

## مـــها

شعرت ببعض الحنين إلى غرفتها الصغيرة في بيت سارة، إلى صباحات أيام السبت والأحد، على صراخ تامر أو بكائه أو مشاهدته للتلفاز منذ الصباح الباكر.

سرعان ما تأقلمت شقتها الصغيرة التي تتشاركها مع علي، رغم صعوبة الظروف المالية لكليهما، إلا أنهما تمكنا من ترتيب هذه الشقة بشكل لائق، الشقة تتكون من غرفتين، وصالة مستطيلة الشكل واسعة نوعا ما مقارنة بالشقق التي تؤجر في

المدينة، أن يتمكنا من إيجاد شقة بغرفتين هو إنجاز كبير بالنسبة للاجيء القادم حديثا، بسبب عدم قدرته المالية على تحمل هذه التكلفة، لكنه تمكن من الحصول على هذه الشقة وبتكلفة معقولة نسبيا تمت بمساعدة بعض الأصدقاء. بالطبع هذا الاختيار أسعدها. كما صمم أن يجهز هذه الغرفة أيضا بالمستلزمات الضرورية استعدادا لاستقبال والدها. مجرد الحديث عن الأمر ومجرد الفكرة بحد ذاتها بإيجاد والدها تشعرها بالخوف.

_ علي أنا سعيدة، أنا أحبك.

هو يعِدها دائما بأن يدع فرحتها تكتمل برجوع والدها. وهي تصدقه.

منذ زواجهما وهما يواظبان على الذهاب إلى دروس اللغة الفلمانية، يحاولان مشاهدة التلفاز معا لمساعدتهما على إتقان اللغة، لكن تواجهما مشكلة اللهجة ،حيث تتغير اللهجة من منطقة إلى منطقة، بحيث تختلف اللهجة كثيرا عن اللغة الهولندية الفصحى التي يتم تدريسها في المدارس.

بعدما كانا يقضيان فترة المساء معا، بدأ علي يخرج كثيرا تاركا إياها بالمنزل ،ويعود إلى البيت متعبا بحيث لا يتمكنان من التحدث بشكل لائق، بدا مشغولا بعقله عنها ولا يشاركها بأفكاره، لم تحاول أن تُلِحّ عليه كثيرا، مؤمنة بأنه في نهاية المطاف سيأتي إليها فاتحا قلبه ليتحدث عن الأمور التي تقلقه.

انتظرت مجيئه شارحا لكنه لم يفعل، مما جعل الشك يدب في صدرها؛ مما زاد الطين بلة قراره السفر وحده إلى تركيا لمدة أسبوع، تاركا إياها حائرة. هل يدخل الملل إلى العلاقة بهذه السرعة ؟

تعجبت من رغبته الذهاب إلى تركيا ولماذا وهما لا يزالان في بداية طريقهما ،يحتاجان إلى توفير الكثير من المال، إيجاد عمل مناسب، لكنه في الأيام الأخيرة يبدو بعيدا عن كل هذه الأحلام التي قرراها سويا. مشغولا بأمور أخرى، لا يتحدث عنها كفاية، وحين تعترض طريقه، يقبلها ثم يهمس، بأنها امرأته وسيجعلها سعيدة دائما.

مر يومان على غيابه من المنزل، تواصلا يوميا، في اليوم الثالث من غيابه، لم تتمكن من الوصول إليه وقد أخبرها بأنه ربما لن يتمكن من التواصل معها لعدم توفر الإنترنت. هذا الأمر جعلها تشعر بالارتباك والحيرة.

أرادت أن تصدقه ولكن الصور المتلاحقة ظلت تخترقها وهي تتخيله بين أحضان فتاة أخرى ،يتجولا المدينة سويا وقد نسى وجودها، يبرر للفتاة الأخرى غيابه عنها أو يخبرها عن وجود مها في حياته أو ربما لا يعلن عن وجودها. هذه الأفكار جعلتها تشعر بالمرض، ظلت بالسرير طوال اليوم لا تشعر بالرغبة في النهوض.

كان من المفترض أن تجتمع مع الفتيات كما العادة، لكنها لم تفعل، ثم أدركت لاحقا بأن الجميع تخلف عن هذا اللقاء أيضا.

حين رن هاتفها المحمول، لم تصدق عينيها حين رأت رقمه بعد غياب يومين كاملين لا تعرف عنه شيئا، شعورها بالسعادة لأنه لا يزال حيا يرزق، وشعور بالتعاسة بسبب الشكوك التي بدأت تدب في صدرها. رفعت الهاتف المحمول إلى أذنها وهي تستعيد كل ما حضرته في رأسها لكي تخبره به، عن شكوكها، عن حزنها من اختفائه، وبأنها تحبه و...

_ مها، عزيزتي. أبوك حي يرزق !

_ علي ؟ لا أفهم !

_ وجدت أباك.

سقط الهاتف من يدها حيث أغمي عليها، وحين أفاقت مجددا كان الهاتف يرن مجددا ويبدو وكأن علي كان يحاول الوصول إليها منذ لحظة الإغماءة حتى استيقاظها.

_ حبيبتي ! أين أنت! أنا قلق !

مها كانت تستمع إليه ولكنها فعليا لم تتمكن من النطق، أرادت أن تخبره بأنها تريد التحدث إلى والدها، لكنها لم تتمكن من قول كلمة واحدة، سمعت صوته يخبرها بأنه يعلم مدى صعوبة الأمر،سمعته يعدها بأن الأمور ستكون بخير، وسيصبحونعائلة سعيدة.

في اليوم التالي حين رأته عبر السكايب لم ينظر إليها حيث بدا منشغلا بلعبة من القطن بين ذراعيه يتحدث إليها، حاولت التحدث إليه لكنه لم يلتفت إليها. شعرت بالخيبة تتسلل إلى روحها والحزن الشديد. سعادة أن تراه حي ا يرزق والحزن لأنها لا تستطيع لمسه أو احتضانه. وعدته أن تهتم به، بكت وهي تخبره بأنها تشتاقه.

ووعدته بأنهما سيصبحان عائلة سعيدة مجددا.

ظل صامت ا يلهو بلعبته، لا يتعرف عليها. بدا أكبر عمرا عن آخر مرة كانا معا ،بدا ضعيفا وشاحبا.

**سعاد**

مرت الأيام والحال أفضل مما سبق، لم يعودا يتشاجران يوميا، بدا أقل عندا ،تشعر بيديه تمتدان حولها ليلا ليقربها منه، لكنه لم يتخلص من عصبيته التي تجعله يتصرف بتهور أحيانا، غالبا ما يأتي إليها معتذرا متعللا بأنه لم يتمكن من السيطرة على أفعاله. تسامحه كما العادة، لأنها متأكدة من حبه لها.

عادت إلى المنزل بعد ما انتهت من عملها مبكرا على غير العادة. شعرت بجسدها متعبا، وحرارتها مرتفعة قليلة، ففضلت أخذ حبة أسبرين والذهاب إلى النوم حتى

لا تقع فريسة المرض لعدة أيام. حين دخلت البيت تفاجأت بوجوده في المنزل يتحدث عبر الهاتف، لم ينتبه إليها، حيث تابع محادثته.

_ بالتأكيد اشتريت خاتما يتناسب مع إصبعها، فقد أخذت معي أحد خواتمها.

بدا مندمجا في حديثه، يتحدث عن المفاجأة التي يعُدها لكي يسألها الزواج، بمجرد سماع كلمة زواج، حتى شعرت بغصة تقف في حلقها، تسربت من الباب خارجا دون أن يشعر بوجودها، وحين وصلت الشارع بدأت تتنفس بهدوء بعد أن كادت تصطدم بالحائط لتشتت ذهنها، فكرة الزواج منه أرعبتها ،شعرت بالخوف. لم تعد تنتظر منه هذه الخطوة كما في السابق، وأن هذه الكلمة جعلتها تدرك الوضع الذي وضعت نفسها به، والزواج سيجعله وضعا دائما بقبولها. منذ فترة لم تعد تشعر بالحب تجاهه كما في السابق، ولطالما رضيت بمدى حبه لها، لا تنسى سوءمعاملته في لحظات غضبه التي لا يستطيع التحكم بها.

حاولت الاتصال بسارة، لكن كما يبدو بأنها مسافرة، مريم لا تجيب على هاتفها كالعادة.

تمكنت من الوصول إلى مها : ألو سعاد، لن تصدقي ما حدث معي.

لم تتمكن سعاد من قول شيء عن نفسها، حيث لم تتوقف مها عن التحدث عن والدها، وكيف تمكن علي من العثور عليه، وبأنه سيقوم بجلبه إلى هنا، وربما هذه الإجراءات ستأخذ وقتا، ولكنه سيكون بين أيدي أمينة تهتم به خلال هذه الإجراءات، شعرت سعاد بالسعادة من أجلها، وكم كانت وردة ذابلة، وقد توردت مجددا.

تمنت لها كل الأمنيات الطيبة ولم تتمكن من التحدث معها عن قلقها، ليس الوقت المناسب.

ما هي سوى ثوان من إغلاقها الخط، حتى هاتفتها مريم، وهذا على غير العادة ،فهي لا تعاود الاتصال مجددا بالأشخاص.

_ ألو مريم !

_ أهلا سعاد، كنت مع الحبيب الأول حين هاتفتني

بدا لسعاد وكأن كل واحد منهم لديه ما يرويه.

_ بعد غياب كل هذه السنوات؟!

_ أجل وتخيلي .

_ ماذا ؟

_ تحررت . لم أعد تلك الطفلة الضعيفة الخجولة، لم أعد خائفة.

شعرت سعاد بغصة، جميل أن تسمع هذه الكلمات من مريم خاصة وأنها تحتاج إلى من يشجعها، هي مقتنعة وموقنة بأن علاقتها معه موشكة على النهاية. بالتأكيد لا تريد الزواج منه، لكنها لا تعرف ماذا تفعل.

_ سعيدة بأنك وجدت قوتك مجددا، ليتني أستطيع.

_ يمكنك إذا أردت. أخبريني ماذا حدث.

_ سمعته يتحدث بالهاتف مع شخص ما و ..

_ هل يخونك؟!

ضحكت سعاد وهي تتذكر بأنها منذ مدة تحاول تركه ولكنها لا تعرف كيف، حتى أضافت أحد الفتيات محاولة التحدث إليها كأنها هو، لكنها لم تجد أي استجابة من الفتاة فباءت محاولتها بالفشل، فقد أرادته أن ينشغل بفتاة أخرى حيث يمكنها التخلص من هذه العلاقة. لا تشعر بالغيرة أو الحب نحوه، بل بالشفقة ،بكى وهي تحاول الانفصال عنه مرة، ووعدها بكل الحب والمعاملة التي تحبها، وأن يتخلص من عصبيته. فكرة الزواج تبدو وكأنها طريقته ليعبر عن ذلك، لا يعرف أن هذه العلاقة لا يمكن لها أن تستمر أكثر من ذلك.

_ بل يخطط للزواج مني !

مرت لحظة صمت، تمكنت مريم من كبت غضبها، وحاولت أن تكون حياديةوهي تسألها : وأنت ماذا تشعرين ؟

_ لا أريد هذا الزواج.

تنهدت مريم بقوة وهي تقول : أحمدك يارب. فقد تحررتِ يا ابنتي !

ضحكت سعاد وهي تخبرها: ماذا أفعل؟

_ لا تعودي إلى المنزل. يمكنك القدوم إلى منزلي حتى نجد حلا سويا، لا أريدك أن تكوني بمفردك معه، يمكنك المكوث في بيت سارة فهي مسافرة، كما لديها غرفة فارغة بعد زواج مها.

_ هل تركت معك مفتاح الشقة؟

_ أجل، أخبريني أين أنت وسآتي إليك، وسأبيت معك كذلك.

شعرت سعاد بالراحة، وأخيرا ليست وحدها، شخص ما يقف بجانبها، أخطأت اختيار الشخص الذي وقعت في حبه، لكن لا أحد يملك الحق في لوم أحد على خطأ يرتكبه في حياته، فمن منا لا يخطئ. كما قال النبي عيسى " من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر".

حدث الانفصال داخل السيارة ولكنه ظل يحاول استرجاعها.

رن جرس البيت، نهضت سعاد عن مقعدها مفزوعة. " لابد أنه هو من يقف أمام الباب ".

هدأتها مريم : هذه اللحظة كانت ستأتي. لايمكن أن تنتهي العلاقة بينكما عبر الهاتف بعد هذه المدة التي قضيتماها سويا.

سعاد تعرف بأن هذه اللحظة ستأتي آجلا أم عاجلا، شجعت نفسها لمقابلته، رفض الدخول إلى منزل سارة. طلب منها الذهاب إلى مكان ما، لكنها رفضت، وقبلت أن يتحدثا داخل السيارة في نهاية المطاف.

بكى مخبرا إياها قصصا حزينة عن طفولته، وعن حياته القاسية، لكن هذه المرة لم تخضع لدموعه وإن بكت معه، قرارها بالانفصال بدا قرارا نهائيا، مريم تقف مقابل السيارة تنتظر خروجها، خوفا عليها من بطشه إن غضب. تلوح بيدها الهاتف المحمول لكي تمنعه من التهور، حيث يمكنها أن تهاتف الشرطة في أي لحظة.

بعد الانفصال، ظل يهاتفها محاولا استرجاعها ،وجدت مكانا مؤقتا تمكث به حتى تجد سكنا جديدا.

أرسل إليها الورود يوميا، ملت من إصراره، إضافة إلى أنه أن خوفها منه مازال مستمرا. رمت الباقة بالشارع أمام عينيه، بكت بعد مغادرته، لكنها أدركت أن عليها أن تكون صارمة وتعطيه إشارة قاطعة. فهي لن تعود مجددا إليه. ردودها ليست دلالا عابرا. فهي لا تريده.

٦١

## لـور / فلســـطين / 2002

لم يتبق سوى يومين على عودتي إلى بلجيكا، حزنتُ لأننا بدأنا بالتقرب من بعضنا في الأيام الأخيرة، نقضي الوقت سويا مستمتعين بصحبة الأصدقاء، لم نتمكن من إمضاء الكثير بمفردنا. صعبت علينا الخلوة أو الاعتراف بالإعجاب الذي نشعر به تجاه بعضنا. وكذلك المنزل الذي به شخص واحد على الأقّل دائما، مما صعب الأمر، كلانا طمح ببعض الخلوة سرا، لكن أي منا لم يعترف برغبته.

قبل مغادرتي قررنا الذهاب إلى أراضي الداخل، بما أنني أحمل الجنسية البلجيكية سيسهل علي التنقل بين الضفة والداخل حيث الأراضي هناك تحت سيطرة السلطة الإسرائيلية، عمر رغب في الانضمام إلينا رغم فرحتي برغبته هذه إلا أنني شعرت بالخطر عليه، حدث سابقا أن طلب تصريحا لدخول الأراضي ولكن تم رفض طلبه، هناك فرصة بالقبول إن حاول مجددا ولكن الوقت لا يسعفنا، لذلك أراد المجازفة بالدخول مختبئا بسيارة تاكسي كواحد منا، شكله قد يساعده حيث يبدو إيطاليا أو فرنسيا أو إسرائيليا من أصل عربي.

شعرت بالخوف عليه، هو بدا متفائلا جدا، حيث يمكنه أخيرا زيارة أراضي أجداده الذي لم يتمكن من زيارتها، يحق لنا نحن حاملي الجنسية الأوربية الزيارة بسهولة من خلال مطار " بن غوريون ". يمكن للعربي حامل الجنسية الأوروبية أو الأمريكية الدخول. أما الفلسطيني حامل الجنسية الأوروبية فلا يستطيع ذلك ،حيث يتم الاعتراف بوثيقته الفلسطينية لا غير، وهذه الوثيقة تمنعه من الدخول.

بدأنا اليوم بتوتر كبير، ربما كنت أكثرهم توترا وخوفا عليه، بدا وكأن الجميع يشعر بأحقيته في الوصول هناك، فدعموه معنويا كذلك، استأجرنا سيارة تحمل أرقام الداخل، حين توقفنا على الحاجز شعرت بالقلق، لكن شابا منا تحدث على لسان المجموعة كلها، عمر لغته الإنجليزية جيدة حيث والدته مدرسة لغة إنجليزية في مدارس الوكالة. بادر بالإجابة على أحد الأسئلة، مما جعلني أتوتر أكثر، وحين تمكنا من الدخول دون مشكلة لم أصدق نفسي، وحين لمته، أخبرني بأنها الطريقة الأفضل لتجنب الشبهة.

عمر من منطقة الضفة الغربية لذلك هو لم يشاهد البحر نهائيا من قبل، رغم وجود البحر الأبيض المتوسط في غزة ،لكن هناك صعوبة للذهاب هناك بعد انطلاق الانتفاضة الثانية، وكذلك بحر حيفا الذي يقع تحت سلطتهم.

حين وصلنا إلى الشاطيء تنهد بقوة قائلا : وأخيرا!

هذه المرة الاولى لمواجهة البحر في الواقع، وجهه كان حالما مندهشا. رمى ثيابه ولم ينتظر أ يآ منا، رمى جسده بين الأمواج بفرح طفل يكتشف شيئا جديدا.
انضممنا إليه وكانت هذه اللحظة الأجمل في حياته حين اعترف لي لاحقا من اليوم حين سمح لنا أحد الأصدقاء باستخدام منزله في غيابه.

لم يحدث أبدا من قبل أن شعرت بهذا القرب معه من قبل رغم أننا قمنا ببعض الزيارات سويا أو تلك الليالي التي قضيناها في منزله، قضيناها أمام التلفاز نتابع الأخبار مع أفراد عائلته بأجواء حميمية رغم بشاعة ما كان يعرض على الشاشة.

كنا منشغلين جدا بالتحدث بصوت خافت، فلم نشعر بوجود الآخرين، ما أخرجنا عن هذه الغيبوبة، تقدم أحد الأصدقاء إلى البلكونة ليخبرنا بخروج المجموعة للسهر بالخارج، ولم يسألونا عن رغبتنا بالانضمام، وكأنهم يتجنبون وضعنا بهذا الإحراج لشعورهم برغبتنا الشديدة بأن نكون بمفردنا.

بمجرد أن أغلقوا الباب الحديدي خلفهم، عم صمت رهيب، كاد يقتلنا سويا، ثم حدثت القبلة، لا أتذكر من بدأها، ربما كلانا، الشغف بدا قويا جدا لمقاومته، لم نتحرك من مكاننا بل كنا تبادل القبل على سطحية الأرض، لم يكن مريحا جدا ،لكنني سعدت

بكل لحظة، بدأ كلانا برمي ثيابه. حدثت اللحظة التي كان كلانا ينتظرها، نمت لدقائق بعدها، لكنه أخبرني بأنني نمت على الأقل نصف الساعة.

همس لي : كنت أنتظر أن تستيقظي، اشتقت إليك مجددا.

في طريق العودة إلى بيت ساحور واجهتنا بعض المشاكل ولكننا تمكنا من حلها ،لم نتحدث كثيرا في عودتنا بل عم الصمت على الكل، بعضنا تعب، أما أنا وعمر لم نجد الكلمات المناسبة.

شعرتُ بالذنب خوفا من أن تقرأ زينة جسدي فتفهم، لكن قلقي ذهب أدراج الرياح حيث بدت مشغولة كعادتها مع أطفالها والتدريس، لم تتغير معاملتها لي.

ما حدث بيني وعمر أصابنا بالجنون. اشتقنا للحظات التي جمعتنا سويا، تسللتُ إلى غرفته ليلا كما طلب مني، نمت بين ذراعيه بعد أن ضاجعني بقوة وأنا أكتم أنفاسي خوفا من أن يسمع من في المنزل تلذذي واستمتاعي، كتمنا تنهداتنا في المرتين. ثم نمنا كطفلين لا يشغل بالنا شيء.

قبيل الفجر عدت إلى غرفتي قبل أن يستيقظ من في المنزل.

في المساء جاء الأصدقاء لاصطحابي معهم إلى المطار، بكيت وبكى الجد وبكت زينة، وعدتهم بالعودة قريبا.

قبلت الجميع، حتى عمر، رغم رغبتي في عناقه طويلا، لكنني لم أتمكن من فعل ذلك أمام الجميع، حين رافقني إلى سيارة التاكسي التي تنتظرني، سألني :

ستعودين ؟

_ أجل!

ابتسم وهو يخبرني : سأنتظرك !

ثم عدت إلى بلجيكا، بمجرد عودتي حاول صديقي السابق الذي هجرني وكنت متيمة به حد الجنون حاول إصلاح الأمور بيننا فضعفت وقبلت مواعدته مجددا ،ولما أخذت الأمور منحى جديا اكتشفت بأنني حامل!

لم أتجرأ على قول المزيد تركت الأمور غير واضحة، لعل سارة تفهم بعض الإشارات التي تركتها في قصتي.

سارة التفتت نحوي : لا أفهم !

لور: لا تفهمين كيف شعرت مع عمر ثم عدت إلى حبيبي السابق؟

سارة: أفهم بأنك لا تريدين ربط مصيرك بفلسطيني عليه مسؤوليات كبيرة، قضية أكبر منه.

لور: كنت مولعة بعنفوانه، أردته لكنني خفت. عودة حبيبي السابق أشعرتني بالتخبط ،علمت بأنني حامل، اعتقدت بأن هذا سيكون القرار السليم لأن يربى ابني في بلد آمن.

أرسلت لها إشارة أخرى لكي تفهم، لكنها تبدو مصممة على عدم الفهم.

سارة : كيف تقبل عمر عدم عودتك ؟

لور : لم يتحدث إلى منذ ذلك الوقت، حتى بعد زواجه.

سارة : يمكنني أن أفهم ردة فعله، لكن عليه أن ينسى !

لور : ظلمته حين لم أعد وتزوجت رجلا غيره، الظروف التي تقابلنا فيها لم تتح لنا استخدام أي وقاية، فكان من الطبيعي أن تكون النتيجة مماثلة و..

_ لحظة لور، هل تقصدين توماس الذي يكره الشرق الأوسط، ويكره العرب وينتقدهم، هو فلسطيني ؟

فاجأني بأنها عبرت عن هذا الأمر بهذه الصورة ،سارة هي ضميري الداخلي ،لذلك لا يمكنني أن أزعل منها، لكن ما تقوله صحيح، هو لا يعرف ذلك ،ليس جميع الأمهات يقدرن على اختيار البيئة المناسبة لأطفالهن، لكنني اخترت له بيئة أفضل، لذلك هو ينعم بهذه الرفاهية. هو لا يعلم بأنه يمكن أن يكون جزءا من هذا المجتمع الذي يكرهه.

كنت قلقة وكأم تفكر بسلامة ابنها، اخترت له أن يعيش بأرض آمنة؛ ليمارس حقوقه كاملة ،وليعترف بإنسانيته. كأم لن أنام وأنا قلقة من أن تصيبه رصاصة بالخطأ، أو أن يمنع من دخول بعض المدن في بلده لأنه يحمل الدم الفلسطيني أو يكون المشروع الفدائي القادم. كنت أريده حرا وأن يعيش حرا. منذ طلاقي وأنا أفكر هل القرار الذي اتخذته كان قرارا حكيما ؟ الأب الذي اخترته له لم يعد موجودا في حياته. والاستقرار الذي أردته له لست متأكدة إن كان كافيا. عودة زينة لحياتي وتقاربنا مجددا أشعرني بالذنب، كيف أستقبل محبتها وأنا أخفي عنها حفيدها ؟

أجبتها : أجل، عمر والده.

ربما لم نجد الكثير للتحدث به، لكنني ارتحت حين تفوهت بالأمر أخيرا. بحت لها عن خوفي من كيفية استقبال توماس لهذه الحقيقة. ربما السبب في بحثي الدائم عن سارة هو حاجتي للاعتراف، وربما بشكل لا إرادي كنت أريد أن أعترف بهذه الحقيقة، وكان علي أن أ جِد الشخص المناسب.

اتفقنا على اللقاء لاحقا، بعد مغادرتنا للكافيه، في طريقي إلى المنزل أدركت ما علي فعله.

دخلت باب المنزل. نادية وتوماس يشاهدان التلفاز، ندهت عليهما بصوت ثابت : سنقوم بزيارة عائلتي في فلسطين الشهر القادم.

خلفية الكتاب

_ العرب يرسلون أطفالهم للموت!

كان علي أن أقول شيئا وإن كان كلامي ثقيلا على قلبه : لا يمكن لأم أن ترسل ابنها للموت، كل ما هناك بأن هذا الطفل يولد خلال الحرب، يرى الموت يوميا ،فتجده مسؤولا عن قضية ،يقاتل لأجلها، فيجد نفسه مضطرا أن يكون مقاتلا، هو لم يختر هذه الحياة، كان يمكن أن تكون أنت من ولد هناك يا توماس.

_ أنا لن أكون متخلفا أو عربيا!

_ نحن لا نختار أين نولد، وماذا نريد أن نكون، بالطبع أنت محظوظ بأنك ولدت في بلجيكا.

_ كنت سأكره نفسي لو ولدت عربيا ! ألا ترين كيف يرسلون صواريخ إلى تل أبيب ؟ ويقتلون الأبرياء.

_ كل ما يمكن أن أقوله بأن العنف يولد عنفا.